كمال بن صحراوي

حب على متن القطرية

خيال

حُبٌّ على متنِ القَطَرِة

Scanned by CamScanner

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك :978-9931-06-275-2
الإيداع القانوني : السداسي الأول 2021.

Scanned by CamScanner

كمال بن صحراوي

حُبٌّ على متنِ القَطَرِية

رواية

Scanned by CamScanner

تمرد

أنا أسيرُ العملِ الأكاديمي وسجينُه منذ قرابة ثلاثة عقود. ولهذا العمل ضوابطُه التي يجب "الانصياعُ" إليها وقيودُه التي ينبغي العمل وفقها. ولعل ذلك يتجسد في الكتابة على الخصوص. فهذه مقدمةٌ تُنحت نحتا، وتلك خاتمةٌ تحبّر للقارئ تحبيرا، وبينهما فصول تُزيَّن كأنها عروس. والباحث يتململ يصارع محاولات الخروج عن المألوف فلا يستطيع، يحاول ركوب موجات التمرد فتأتيه الأوامر أن عُدْ وإلا...

أما اليوم فقد خرجتُ عن تلك الضوابط ورميتُ الأغلال، إلا ما يقتضيه العقل وتفرضه الفضيلة، وكتبتُ بكل راحة وحرية؛ كتبت لنفسي قبل أن أفكر في العالم الخارجي، ثم جاء دورك أيها القارئ الكريم لتعيش معي هذه التجربة.

كمال بن صحراوي

2020/10/19

Scanned by CamScanner

إهداء

إلى كل من جمعتنا بهم المحبة الصادقة حتى ولو لم يُكتب لنا
بهم لقاء

Scanned by CamScanner

ذكرُ بعض الأسماء أو الأماكن في الرواية عفويٌّ ولا يعني أبدًا الرغبة في التقرب من جهة ما لأجل جائزة أو مكافأة.

Scanned by CamScanner

أول الحُبِّ نظرة!

ها قد أصبحت زينب في الأجواء العليا على متن "القطرية"، حتى إذا استوت الطائرة في الجو صار بإمكان الركاب أن يتحركوا في حدود ما يسمح به الرواقان الضيقان.

كانت الطائرة تعج بالركّاب الأجانب الذين يتبادلون أطراف الحديث عن مدينة الدوحة وعجائبها وعن دورة الألعاب الآسيوية السابقة، وراح أحدهم يحدث صديقه بصوت مرتفع عن جولة الدوحة للتنمية ونتائجها على التبادل التجاري.

لم تكن زينب ترغب في سماع هذا فقامت والتعب بادٍ عليها من خطواتها المتثاقلة، متجهةً إلى حيث دورة المياه، وعادت وقطرات الماء لا زالت على وجهها. لقد تعمدت تركها لعل ذلك يساعدها على كسب بعض من النشاط.

وبينما هي متجهة نحو مكانها الواقع على الجهة اليمنى من الرواق الأول وقع نظرها على شاب وسيم يسند رأسه على زجاج النافذة، وقد سبحت عيناه في رحب الفضاء. وتثاقلت زينب أكثر. فهذا المشهد يخفي وراءه شيئا ما.

جلست في مكانها وليس شيءٌ يشدها إلا صورة ذلك الشاب، وخرجت المضيفات على الركاب يُعطِّرنَ الجو الداخلي ويوزعن بعض الحلوى والشوكولاتة الفاخرة. وامتدت الأيدي، وزينب لا تنتظر إلا أن ترى ما يفعل

الشاب الوسيم، وإذا به غارق في التفكير لا يعنيه شيء مما تفعله حسناوات القطرية. وزادت حيرة زينب فقررت - بفضول غريب - أن تقترب من هذا المسافر الذي لا يقل عن فضولها غرابة.

وما هي إلا دقائق حتى عادت المضيفات يدفعن عربات عليها من المأكل والمشرب ما يمكن أن يسد حاجات هؤلاء المسافرين، وفي هدوء تام وسلاسة رائعة رُحن يُرضين الطلبات التي يطلقها أصحابها بلغات مختلفة، وإذا ببعض الجمل الفرنسية تنساب من بين الضجيج. وانتبهت زين

ب، فكأنما ذلك جرس رنّ من أجلها. أطلت برأسها لتعرف مَنْ صاحبُ هذا الصوت، وإذا به صاحب اللغز ذاتُه؛ إنه يطلب بعضا من عصير الليمون البارد وبعضا من الحليب الممزوج بالشوكولاتة، وتساءلت: هل يلتقي هذا وذاك؟

وبينما الطائرة تمخر عباب السماء راحت زينب تلعب دور المحلل النفسي دون أن تدري؛ عصير بارد! وحليب بالشوكولا! ثم انطلقت تجيب نفسها بنفسها في صوت خافت:

إنه يريد بعضا من النشاط، فالليمون غني بالفيتامين ج (C). لا لا إنه يحتاج إلى مزيد من السكينة والهدوء، فالحليب الدافئ يمنح شعورا بالأمان. قالت ذلك وهي لا تعلم شيئا عن هذا الذي ترقبه من بعيد.

.. سيداتي، سادتي، سنحط الرحال الآن بمطار شارل ديغول بباريس، وهذا الكابتن سليم الأحمدي يشكركم على ثقتكم في "القطرية" ويرجو أن تكونوا قد قضيتم على متن هذه الرحلة وقتا طيبا..

وبقدر ما نبهت هذه الرسالة الصوتية زينب إلى نهاية الرحلة وقرب النزول بباريس بقدر ما زادت من حيرتها، فهي حتى الآن - والرحلة توشك على النهاية - لم تحظَ بفرصة التعرف على الوسيم، لذلك قررت أن تفعل شيئا يوصلها إلى تحقيق غايتها.

حين نزل الركاب واتجهوا صوب عنابر المراقبة أسرعت لتقف أمام الشاب في الطابور، ثم أسقطت بعض أوراقها متظاهرة بغفلتها عن ذلك، وإذا بالشاب يلتقط الوثائق في هدوء تام ينم عن نضج عميق، ويبادر بالحديث: سيدتي، هذه الأوراق سقطت من حقيبتك.

وعلى التو التفتت زينب، وقد علَتْها ابتسامةٌ عريضة امتزجت ببعض الحياء. قالت: شكرا سيدي. أنا زينب.

ورد الشاب الوسيم: العفو سيدتي! وأنا عادل.

عند ذلك أحست زينب أن العقدة قد حُلت، فراحت تسأل عادل عن وجهته، ولم تُفلتْه إلا وقد حصلت على رقم هاتفه.

زينب شابة رياضية من أصول مغاربية تسكن مدينة لوهافر Le Havre بالنورماندي شمال فرنسا، حيث عدد المسلمين قليل ضمن النسيج البشري البسيط الذي تحويه هذه المدينة أصلا، فهي ليست كباريس أو كمرسيليا. كان هذا من ضمن ما عرّفت به زينب نفسها لعادل. غير أنه في المقابل لم يقل الكثير.

انشغل كل من الشابين بأمره بعض الوقت، وبعد أن أتمت زينب إجراءات الدخول توجهت بنظرها صوب عادل، وكان حينها مشغولا فلم ينتبه إليها، وظلت ترقبه حتى حظيت بنظرة منه فبادرته بابتسامة وداع ملوّحة بيدها من بعيد.

حين ركبت القطار الذي يقلّها من باريس إلى لوهافر اعتزلت زينب على مقعد محاذٍ للنافذة ومدت بصرها على امتداد المناظر الطبيعية المترامية بين المدينتين على مسافة تقارب مائتي كيلومتر، ويداها تداعبان القصاصة التي سجلت عليها رقم هاتف عادل، في مشهد يحاكي ما كان عليه هو ذاته في الطائرة. كان ذلك أُولى تجليات التعلق الذي صارت زينب إحدى أسيراته. وكلما فكرت - وهي في الطريق - بالاتصال على هذا الرقم تحركت بداخلها كرامة الأنثى فمنعتها من ذلك.

في البيت العائلي بلوهافر كان الأهل ينتظرون زينب على أحر من الجمر، فقد غابت مدة شهر شاركت خلاله في فعاليات نشاطات رياضية بالدوحة،

وسبقتها إلى فرنسا أخبار فوزها بميدالية ذهبية. كانت قريناتها هناك محاطات بالأهل والأحباب، بينما كانت هي وحيدة لا يساندها إلا مدربها ذو الأصول الإفريقية، فظروف عائلتها لم تسمح بمرافقتها إلى المدينة الخليجية الجميلة.

حين وصلت إلى منزلها الواقع قريبا من شارع دارون في لوهافر علت أصوات العائلة بالترحيب. ولم يمضِ كثير من الوقت حتى وفد عليها الجيران أفرادا وجماعات يهنئونها بالفوز، ولم يتوقف هاتف العائلة الثابتُ عن الرنين، فالجالية العربية - على قلتها بالمدينة - تمد جسور التواصل كلما توفرت لذلك فرصة.

وكلما رن الهاتف نادت أم زينب على ابنتها لترد على المشجعين والمعجبين، وليس في ذهن زينب إلا رقم واحد لكنه لم يظهر بعدُ على الشاشة الصغيرة التي تعلو جهاز الهاتف الثابت.

ليس سهلا على المرء أن يخفي مشاعره، فبعد أن غادر الضيوف والمشجعون أَوَتْ زينب إلى غرفتها فلحقت بها أختها التي تصغرها بعامين.

وبينما كانت زينب قد استلقت على السرير، جلست سعاد على أريكة صغيرة قريبا من الزاوية. وبنظرات تحمل كثيرا من الشك والغموض تابعت انشغال أختها الكبرى، ثم قالت في جو يصنعه مُزاح الشابة الفضولية:

ما الذي يشغل بال بطلتنا الجميلة؟

واحمر مُحَيَّا زينب وبدت عليه ملامح الخجل، فهي لم تعتد على أن تقاسم شابا مشاعر الحب، فلطالما شغلتها الرياضة عن ذلك. ورغم الاضطراب نجحت في مواراة شعورها، فالوقت لم يحن بعدُ لإطلاع أحد على الأمر.

وبينما كانت مدينة لوهافر هي وجهة زينب عبر القطار لم يبتعد عادل عن مدينة باريس، فهو يسكن بحي بارباس حيث تقيم الجالية المسلمة بكثرة، وحيث المنحدرون من بلاد المغرب العربي، وهو بذلك لم ينفصل كثيرا عن بلده الأم، ففي بارباس كل شيء يذكّر بالضفة الجنوبية للبحر المتوسط.

كان عادل يومها عائدا من الهند بعد مشاركة قوية له في أحد معارض نيودلهي التكنولوجية، فهو من الشباب المولعين بالاختراع، وله اهتمام خاص بالهندسة الكيميائية، أما الدوحة فلم تكن يومها سوى محطة عبور اقتضاها خط سفره إلى باريس.

في بارباس يجتمع الشباب العربي عادة حول المقاهي وفي الأزقة الضيقة يتجاذبون أطراف الحديث عن "البْلَادْ" التي تعني الوطن الذي قدموا منه، وكثيرا ما يختبئ الشباب المقيم بطريقة غير قانونية كلما مرت سيارة شرطة.

لم يكن لعادل أصدقاء في بارباس، وهو منذ سنوات يفكر في سر هذا التوافد المتزايد للشباب من الضفة الجنوبية ويطرح الأسئلة، لكنه مشغول بالتكنولوجيا، ولعله لم يجد من الوقت ما يسمح له بالبحث للوصول إلى إجابات شافية.

كان يرى - على شاشات التلفزيون - قوارب الموت وهي تحمل أناسا لكن لا توصلهم إلى حيث يريدون. كان يرى جثث الأطفال والحوامل وقد وصلت إلى الشواطئ ممزقة بعد أن أضحت طعاما للحيتان. ولطالما تساءل: أليس هذا نوعا من الانتحار؟ غير أن رصيده الثقافي كان يجعله يتريث فلا يصدر الأحكام.

في ليلة الثلاثاء كان المسلمون في فرنسا يستعدون للاحتفال بعيد الفطر، وكان البرد القارس في لوهافر قد أفسد على الأطفال فرحتهم، أما زينب فلم يكن عيدها ليمر سعيدا إلا إذا اتصلت بعادل. لقد بحثت طويلا عن بطاقة تهنئة تليق بهذا المنتَظَر، وجمعت من البطاقات العشرات، لكنها احتارت، أيها تختار؟

ومضى أول الليل ولم تحسم زينب أمرها إلا بمشقة، ثم بعثت بالبطاقة إلى صاحب الرقم، وقد احتفظت بالقصاصة التي كُتب عليها كأنها هدية خاصة.

حين وصلت الرسالة النصية إلى عادل - وهي تحمل بطاقة التهنئة - كان يغط في نوم عميق، لم يردّ على صاحبتها التي انتظرت وانتظرت، ثم نامت بعد أن استسلمت للنعاس.

وبعد أن أمضى عادل صبيحة يوم العيد منشغلا مع أهله، انتبه إلى رسالة زينب فرد عليها باختصار:

عيد سعيد. شكرا

وبلغت الرسالة زينب. قرأتها في حينها، وتمزقت بين فرحة ويأس!

ثلاث كلمات!؟ هل هذا جوابُ مَن ظلت تنتظر كل هذا الوقت؟

لكنها رغم ذلك فرحت، فالخيط الرفيع لم ينقطع بعد.

ويبدو أن هذا الخيط الرفيع سيصبح أكثر قوة ومنَعَة. فبعد فترة وجيزة استلمت زينب عرضا جديدا في مجالها الرياضي، فالنجاحات التي حققتها جعلت الإدارة تقترح اسمها كمدربة لفريق كبير، لكن هذه المرة في العاصمة باريس!

عينٌ من الضفة الأخرى

على الضفة الغربية للمحيط الأطلسي، وفي مبنى قديم بمدينة نيويورك اجتمع جاك، تشارلز وروبرت؛ ثلاثة كهول ينتمون إلى أسلاك أمنية مختلفة، لكنهم ينضوون - بصفة غير رسمية - تحت لواء هيئة أمنية واحدة. إنهم يناقشون طريقة تجنيد بعض الشباب المسلم لمهمة ببلاد الشام. وقد نجح تشارلز في التقرب من مسلمي الولايات المتحدة الأمريكية متظاهرا بالرغبة في اعتناق الإسلام فصار نتيجة ذلك يحظى بتعاطفهم، حتى أنه حضر تجمعين أقامتهما المنظمة الإسلامية إسنا ISNA.

أما جاك فكانت له جولات عديدة في الوطن العربي، حيث كان ممثلا لشركة اتصالات أمريكية تشتغل بموجب عقود طويلة الأمد. وكان من خلال هذه الشركة قد كوّن شبكة للمعلوماتية وتعرف على المئات من الشباب العربي الذي كان يرى في هذه المؤسسة فرصة ذهبية للقفز نحو العالم الجديد.

وأما روبرت فكان مجال اهتمامه الجغرافي هو أوربا الغربية، حيث كان يوظف مهاراته في علم الاجتماع في دراسة الظاهرة الدينية في القارة العجوز، ويركز على الإسلام ودور المسلمين في المجتمعات الأوربية. لقد اهتم بمساهمة هؤلاء في الاقتصاد الأوربي وفي دعم هذه المجتمعات بالقوة البشرية التي أبعدت عنها شبح الانقراض. كما كانت له وقفات مطولة مع

الجوانب السلبية لوجود المسلمين المتزايد في فرنسا وبريطانيا على الخصوص.

كانت باريس إذنْ ضمن دائرة اختصاص روبرت، ورغم أن عادل كان قليل الأصدقاء فإنه استطاع الوصول إليه وربط صلة معه، فهو - كصديقيه - الكهلُ المتمرسُ ذو الخبرة الطويلة في التعامل مع المسلمين.

فبينما عادل بباريس منهمكٌ في التفكير في حل بعض المسائل العلمية في "نادي الإلهام" Club d'Inspiration الذي يُعنى بذوي الطاقات الفكرية اقترب منه روبرت وحدثه بلغة فرنسية بدا منذ الوهلة الأولى أنها ليست هي لغته الأصلية:

- السلام عليكم
- وعليكم السلام. هكذا رد عادل مستغربا توجيه التحية إليه من شخص لا يعرفه.

وحتى لا يعطي روبرت فرصة لعادل ليرتب أفكاره بادره بالقول:

- أنا سائح أمريكي، وأود التعرف على بعض المسلمين. أعرف أن في باريس كثيرا منهم. قرأت عن الإسلام واتصلت في أمريكا بمسلمين كثر، وحضرت لقاءات الإسنا.

قال ذلك ليكسب ثقة عادل الأولية، خاصة بعد أن لاحظ ارتسام ملامح التعجب على وجهه.

ونظرا لأن عادل متريث بطبعه في بناء علاقاته الاجتماعية لم يفسح المجال كثيرا لهذا "المتطفل" لكنه لم يصدّه تماما، فالصد ليس دائما من طبع الإنسان السوي. وكانت تلك فرصة لروبرت - الذي لم يفصح عن اسمه حتى الآن - ليتحدث مجددا عن علاقاته بالمسلمين وتعاطفه معهم، فهو حسب زعمه صاحب مؤسسة اقتصادية يقصدها الخيرون لطلب المساعدة.

قال ذلك بإيجاز ثم طلب الإذن من عادل ليتخذ مكانا في النادي، فهو - حسب تصريحه - يريد الاطمئنان عبر الأنترنت على مصالحه في بلده. غير أن عادل احتفظ بالمعلومات التي طرحها روبرت دون كثير من التعليق.

كان روبرت منذ سنوات يعمل بالتعاون مع جاك وتشارلز للوصول إلى بعض الشباب الفرنسي من أصول مغاربية لتجنيدهم لصالح هيئاتهم الأمنية ضمن خلايا تنشط على مستوى العالم العربي وحتى في أوربا، وكانت هذه الطاقات الشابة تسيل لعاب الكهول الثلاثة الذين كانوا يتابعون أخبار التكنولوجيا العالمية والمتضلعين فيها، لينتقوا منهم من تكون له قابلية التجنيد. فالقرن الحادي والعشرون صار يفرض تحديات عظمى، ومن لم يدافع عن وجوده داسته الأقدام. تلك هي فلسفة جماعة الكهول.

حين كان عادل في نيودلهي يشارك في معرضها التكنولوجي الدولي، كان تشارلز مكلفا بمراقبته ومتابعته، يكتب عنه تقارير مفصلة إلى مسؤوليه. ولم تكن أحاديثه مع أقرانه من المهتمين بالشأن التكنولوجي لتشذ عن قاعدة المراقبة. غير أن شدة انتباه عادل ونباهته جعلت شارلز حذرا للغاية، وكثيرا ما استعان بموظفيه لإتمام هذه المهمة على أتم وجه.

في نيودلهي كان عادل يرافق مهندسا باكستانيا - اسمه رباني - إلى محلٍ لبيع الخضروات، وبينما هما منهمكان في حديث عام ينتظران دورهما عند الصندوق لدفع مستحقات ما اشتريا، أحدث الزبائن جلبة قريبا من الصندوق، والموظفةُ المكلفة تعتذر بصوت مرتفع، فالمكنة تعطلت وقد يستدعي الأمر انتظار التقني الذي سيصلحها. عند ذلك قال رباني لعادل: من منا يصلحها؟ أنا أم أنت؟

رد عادل مازحا: ما رأيكم أن يُجرَّب الشباب؟

ابتسم رباني، وتقدم عادل بين الزبائن الغاضبين حتى وصل إلى أول الطابور، ثم كلم الموظفة: هل لي بتقديم بعض المساعدة؟

وردت السيدة في أدب ممزوج بعلامات الغضب:

– وكيف يمكنكم المساعدة؟

– دعيني ألمس هذه الآلة

– عليّ أولا استشارة مدير المتجر.

– تفضلي

وما هي إلا دقائق حتى حضر المدير بعدما وصله الخبر عن طريق الهاتف.

– ماذا تقترح يا سيدي؟

– دعوني ألمس هذه الآلة

– تفضل.

تقدم عادل نحو الجهاز المعطل، ولم يستغرق الأمر أكثر من ثوانٍ حتى صرخت الموظفة:

– ها قد تم إصلاحها!

كان المدير يعلم أنها مسألة عطل تقني، غير أن بعضا من الزبائن تهللت وجوههم كأن بركة حلت عليهم من السماء، وراحوا يشكرون عادل على ما قام به. ثم قدموه وصاحبه في الطابور، فلا يصح أن يبقى هذا الشاب ينتظر.

– يا له من شاب ذكي!

قالها شارلز في نفسه ولم يبدها لأحد وهو يقف في آخر الطابور.

وعلى متن القطرية - حين كانت زينب منزعجة من الحديث عن الدوحة وجولات التفاوض مع المنظمة العالمية للتجارة - كان تشارلز من الذين يُحدثون جلبة بالنقاش وعينُه على الشاب الوسيم الذي يسند رأسه على

زجاج النافذة. أما في الطابور الذي سبق إجراءات الدخول إلى باريس، فقد حاول البقاء بعيدا، فبعدما كان مكلفا بمراقبة عادل صار عليه الآن أيضا أن يسجل كل شيء عن زينب.

وسلم تشارلز المهمة إلى روبرت لما صار الشابان بفرنسا. وبقدر ما كانت مهمة متابعة عادل صعبة بقدر ما سهُلت نظيرتها المتعلقة بزينب، فنشاطها الرياضي جعل المعطيات الضرورية حولها متوفرة حتى على شبكة الأنترنت. غير أن روبرت اعرضت طريقَه مسألةٌ كبرى هي البعد بين باريس ولوهافر، وصار صعبا عليه في هذه الحالة تتبع العلاقة بين الشابين، لذلك وجب اتباع كل الحيل للجمع بينهما بباريس. لكن كيف؟

استشار روبرت زميليه واهتدت الجماعة إلى استخدام الرياضة طعما لزينب، وبنفوذ الهيئات الأمنية تم تعيينها مدربة بباريس، وهي لا تدري أن يدًا خفية تحرك هذه الخيوط من بعيد!

حاول السيد العربي والدُ زينب منْعَ ابنته من الانتقال إلى باريس، فالمسافة بعيدة وستظل العائلة مشغولة البال عليها، غير أن الإغراءات كانت كثيرة، فالمرتّب كبير، وفرصة النجاح لا ينبغي أن تفوّت. ثم هل يستطيع الوالد أصلا في ظل قوانين المجتمع الفرنسي أن يمنع ابنته من فعل شيء حتى لو تعلق الأمر بما يخالف العقيدة والأخلاق؟

حملت زينب حقيبتها الظهرية التي ليس فيها من الأغراض إلا القليل؛ بعضٌ من الملابس والوثائق، فالعقد الذي أمضته مع الإدارة يضمن لها كثيرا من المتاع بمجرد الوصول. ومع الحقيبة الخفيفة حملت آمالَ النجاح، فلطالما جدّت واجتهدت، ولطالما حلمت بمساعدة عائلتها للخروج من الوضع المتوسط الذي تعيشه. ورافقت آمالُ النجاح آمالَ العيش بالقرب من عادل، ففي عروق زينب يسري دم البنت الشرقية التي لا تتخلى بسهولة عمن تحب.

تجنيدٌ بلا حدود

كانت فلسفة المنظمات الأمنية التي ينتمي إليها الكهول الثلاثة تقوم على زرع الشك لدى الشباب المسلم في علاقته مع الغير، وكان التركيز قائما على شباب أوربا وأمريكا. فقبل سنوات نجح روبرت في تجنيد ثلاثة شبان لا تتجاوز أعمار أي منهم ثلاثة وعشرين عاما. وكان رمزي واحدا من هؤلاء.

في قسم العلاقات الدولية بجامعة إيسكس University of Essex الواقعة بمدينة كولشستر في الجنوب الشرقي لإنجلترا كان رمزي يجلس داخل المدرج في الصف الثالث ابتداء من مكتب الأستاذ ج. فيشر G. Fisher المتضلع في كل ما يتعلق بالنزاعات الأمنية والصراعات بين الدول خصوصا ما ينشأ عن الخلاف حول الحدود، وكان الشاب يناقش أستاذه بنوع من الحماس الزائد الدال على تبنّي أفكار معينة.

عائلة رمزي ميسورة الحال استطاعت أن تُدخل ابنها جامعة معروفة لتضمن له تعليما راقيا، ورغم نشاطه الدؤوب واجتهاده المستمر لم يستطع بناء علاقات اجتماعية دائمة، فهو سريع التقلب كثير التردد، وهذا ما جعل أصدقاءه المقربين ينفرون منه، حتى إن أمه سارة طالما تدخلت - وهو طالب جامعي - لتحافظ له على الحد الأدنى من الصداقات، وكان طبعه هذا هو الذي جعله ضحية لروبرت الذي ظل يراقبه من بعيد مدة تجاوزت ثلاثة أشهر، ثم كلّف إحدى مساعداته الشابات بالدخول معه في علاقة.

لم تجد الفتاة الشقراء فيونا Fiona أي صعوبة في التعرّف على رمزي، فقد مدت إليه يدها مصافحة ذات يوم بعد أن شربت كأسا من الشاي بالقرب منه في نادٍ قريب من حرم الجامعة. وراح يحدثها عن اهتماماته وطموحاته بعد أن فصّل لها الحديث عن وضعه الاجتماعي وأصدقائه السابقين. وانطلاقا من مهمتها السرية الخطيرة شرعت في الحديث عن نفسها ومحيطها الاجتماعي الصعب، وهذا ما جعلها تستعطفه بقوة.

بعد أيام، كان رمزي خارجا من محطة النقل وإذا بفيونا برفقة كهل يضع نظارات وقد غزا الشيب رأسه، وتظاهرت الشابة بعدم انتباهها إليه، فراح يلحق بها مناديا عليها، حينها التفت إليه وصافحته ثم عرّفته بوالدها الذي دعاه إلى بيته لتناول الشاي. ولم يكن هذا الوالد حينها سوى روبرت!

ظل رمزي مشغولا بإنجاز بحوثه طيلة أيام، لذلك تأخرت زيارته لبيت فيونا، وحين التقيا قدّم اعتذاره ووعد بالزيارة في ظهيرة اليوم الموالي. وعندما وصل إلى البيت كانت فيونا و"والدها" ينتظرانه، شرب الجميع الشاي ضمن جلسة حميمية يطبعها نقاش هادئ حول الوضع العام في العالم، وكثرةِ أسباب الصراع الدولي، وموقفِ الهيئات الدولية من ذلك كله. وبدا لرمزي أنه أمام شخص له ثقافة واسعة. لذلك بادر بالسؤال:

– هل أنت مختص في العلاقات الدولية يا سيدي؟

– لا لا أنا كنت محاميا ذات يوم.

وتدخلت فيونا:

– كان والدي يدافع عن الفقراء، خصوصا أولئك الذي قدموا من بلاد بعيدة.

حينها أردف روبرت:

– لازلت أذكر حال كثير من المهجّرين الذين أُجبِروا على ترك ديارهم وممتلكاتهم وفروا طلبا للنجاة. غير أنهم لم يجدوا من أوربا إلا الصد. لم يرحمهم أحد!

قالها، وأصدر زفيرا عميقا ينبئ بشفقة وامتعاض. لقد حاول جاهدا أن يبيّن لرمزي شدة تعاطفه مع المسلمين المضطهدين، وقوةَ استيائه من طريقة تعامل الأنظمة الأوربية مع ظاهرة الهجرة التي تزداد يوما بعد يوم.

– أليس الغرب هو المسؤول عن هذا الوضع السيئ؟

لم يقل رمزي حينها كثيرا من الكلام. استأذن وانصرف بعد أن نجح روبرت في سماع وعد منه بزيارة ثانية. وظل حديث والد فيونا يرن في أذن الشاب: أليس الغرب هو المسؤول عن هذا الوضع السيئ؟

في اليوم الموالي، كان الأستاذ فيشر يشرح للطلاب آثار النظام الدولي الجديد على العالمين المتطور والمتخلف، وإذا برمزي يتدخل بنوع من الحدة:

– أليس الغرب هو المسؤول عن هذا الوضع السيئ يا أستاذ؟

وردّ الأستاذ فيشر في هدوء:

– بلى. ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى وقفة مطولة.

غير أن الشحنة التي أطلقها روبرت باتجاه رمزي كانت كبيرة للغاية، ولم تكن لتوقفها تبريرات الأستاذ فيشر. وبعد زمن ليس بالطويل حام روبرت وجماعته حول الشاب البريء، وأقنعوه بضرورة الانخراط في جماعة أوهموه أنها تدافع عن الإسلام والمسلمين. وإثر غياب مفاجئ شرعت العائلة في البحث عنه دون جدوى إلى أن جاءها خبر وفاته في إحدى الدول العربية، وكان حينها يجهز نفسه للقيام بعملية انتحارية.

لم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي نجح فيها روبرت في تجنيد شباب للقيام بمهام تخدم أجندته بامتياز، فقد انتبه يوما إلى أحد اللاجئين السوريين في محطة الميترو ببرلين، وكان الشاب ذو السادسة عشرة يقف مستندا إلى الحائط وقد بدت على وجهه هموم الدنيا بأكملها. وراح روبرت يرقبه من بعيد، لتستمر المراقبة أشهرا عديدة ولتفضي إلى جمع كثير من المعطيات عن هذا اللاجئ الذي لم يتخلص بعد من آثار الحرب الدائرة في بلاده.

لقد فقدَ بسام والدته وأخاه الأصغر حين تعرض بيت العائلة لقصف كانت مدينة حلب هدفا له، ولم ينجُ هو وأخته لميس إلا بأعجوبة كبيرة. وحين تم إخراجهما ضمن بعض الناجين حاول تأمين الطعام لأخته التي هد الجوع جسدها النحيف، فهي لم تأكل ما يكفي من الطعام منذ زمن، أما حالتها النفسية فقد انهارت بعد حادثة القصف المروّعة.

وتبعا للمحاولات العديدة التي قام بها بسام ولميس للوصول إلى اليونان عبْر تركيا رغبة في الانتقال إلى ألمانيا تم الفصل بينهما، للذكور مراكز إيواء وللإناث مراكز أخرى. ولم يعد من السهل على الشاب التعرف إلى مكان وجود أخته، وكلما مرت الأيام قَلّتْ حظوظه في الوصول إليها. وقد نجح في الأخير في الدخول إلى ألمانيا عبر النمسا لكنه فقد أعز ما بقي له في الحياة.

ظلت هذه الحوادث تشغل بال بسام طيلة الشهور الأولى التي قضاها في برلين، وكانت هذه هي الفترة التي وقع فيها تحت عين روبرت الذي لم يكن يصعب عليه التواصل مع شاب يائس بئيس. وفي مرحلة تحضيره للقيام بعملية داخل برلين هذه المرة جاء قرار من الإدارة المعنية باللاجئين. لقد أصبح من حق بسام أن يعيش في كفالة عائلة ألمانية. كان هدف هذا البرنامج هو إدماج اللاجئين السوريين القصّر في المجتمع الألماني وتنشئتهم على أسس المواطنة حتى لا يعيشوا في عزلة عن المجتمع، فذلك يكلف الدولة الكثير.

وصار الآن على روبرت أن يبذل من الجهد ما يعادل التحول الجديد، فبسام أصبحت تتجاذبه قوّتان؛ قوة المجتمع الألماني الذي يسعى إلى إذابته وتحويله إلى فرد عادي في المجتمع، يفكر كما يفكر غيره من الناس وولاؤُه للدولة القُطرية الألمانية. وقوةُ روبرت الذي يذكّره في كل حين أن ما حل به وبعائلته إنما كان بسبب هؤلاء الغربيين الذي لا يهتمون لأمر الشعوب المستضعفة، وإنما يدفعونها بالقوة ليقتتل أبناؤها فيما بينهم لاقتسام غنائمها.

– ولماذا يساعدوننا إذنْ ويعملون على إدماجنا، وتفتح لنا العائلات أذرعها لتحتضننا قبل أن تفتح لنا الأبواب؟ سؤال يكرره بسام كلما أثقلت عليه كلمات الكهل الخطير.

وانطلاقا من فلسفة روبرت في التعامل مع هذه الحالات كان كثيرا ما يلجأ إلى التشكيك ليُبقي العنصر المرادَ تجنيدُه بعيدا عن المجتمع، فيحول بذلك بينه وبين الإدماج الذي قد يُفسد عليه مخططه. وبهدف النجاح كان يقف كثيرا على إشكالية مسؤولية الغرب فيما يقع داخل العالم الإسلامي، وهو (أي روبرت) - رغم مشروعه الرهيب - لم يكن مجانبا للحقيقة.

في عائلة بسام الجديدة أم طيّبة وأب مثقف وأخت جامعية ليس لها أخ أو أخت. كانت روزا شلوصر تكبر بسام بست سنوات، لذلك أحست بنوع من

المسؤولية تجاهه، وقد ركزت على تعليمه اللغة الألمانية لأنها مفتاح الاندماج. وصارت تتباهى به أمام صديقاتها، فلطالما عاشت بلا أخ.

وحتى يفسد روبرت على بسام فرحة العيش في جو العائلة وإمكانية الاندماج سلّط عليه من بعيدٍ بعضَ شباب اليمين المتطرف الرافض لوجود المهاجرين، فصاروا يزعجونه في المدرسة الثانوية التي يدرس بها، ويتبعونه حتى البيت. وحين علمت عائلته بذلك اتصلت بإدارة الهجرة.

كان ذلك إجراءً قانونيا وجب اتخاذه، أما داخل البيت فكان أفراد الأسرة الثلاثةُ يحيطون بسام بالرعاية التامة، خصوصا أمه التي كانت تردد على مسمعه أن هؤلاء الشباب لا يشكلون سوى نشاز، وأن السلطات الأمنية ستضع لهم حدا لا محالة. غير أنها مثلت بهذه العناية تهديدا قد ينسف جهود روبرت وجماعته، ولذلك سيعمد الكهل إلى ما هو أسوأ.

كانت قدرة هذه الهيئة الأمنية على الاختراق عالية جدا، لذلك تمكن معاونو روبرت من هاتف بسام وأرسلوا باسمه صورا غير لائقة إلى أخته الألمانية، على أساس أنه يُغريها لتربط معه علاقة جنسية. وكان ذلك صدمة كبرى لروزا التي أسرعت إلى والدتها فأخبرتها وصار الأمر محل انزعاج رهيب. فكيف لهذا الذي آوته الأسرة واتخذته واحدا من أفرادها أن يتصرف بهذه الوقاحة مع من تكبره بسنوات وتعتبره أخا بُعث إليها من بعيد.

في آخر النهار عاد بسام إلى البيت، فتح الباب وإذا بالسيدتين جالستان وعلامات الشر بادية على وجه كل منهما. بادرته روزا بالسؤال:

ما هذا الذي فعلت؟

رد المسكين دون أن يدري ما الذي حدث: وماذا فعلت؟

واغرورقت عينا روزا ثم انطلقت باكية باتجاه غرفتها، وهي تكرر كلاما لم يفهم منه باسِمٌ سوى جملة واحدة: اتخذتك أخا فخذلْتَني.

وتوجه صوب أمه بنظرة استعطاف والذهولُ بادٍ عليه. فاقتربت منه ومدت إليه يدها، لا لتأخذ بيده كما عوّدته، ولكن لتُرِيَهُ الصور التي على هاتف أخته. ثم سألته. كيف جرُأت وأرسلت إلى ابنتي هذه الصور غير اللائقة؟

رد ببراءة تامة اختلطت ببعض الانفعال: لم أقم بهذا أبدا. لست أنا.

إن الذي تعرضت له العائلة الألمانية لم يُعطها فرصة لتفكر في سبيل آخر غير طلب الرحيل من باسم. تم ذلك بعد يوم واحد من الحادث، فقد وجب انتظار الأب ليُتخذ القرار بصورة جماعية. وبينما باسم يفتح الباب عائدا من المدرسة في مساء اليوم الموالي إذا بالعائلة مجتمعة مع شخصين آخرين تنتظر رجوعه.

ألقى التحية فلم يرد عليه أحد. ثم بادرته السيدة المكلفة بملفه على مستوى دائرة الهجرة قائلة:

لقد فسخت عائلة السيد شلوصر عقدها مع دائرة الهجرة بسبب ما حدث. ولم يعد بإمكانك البقاء هنا. أرجو أن تحضر أغراضك الآن. ستنتقل إلى مخيم يبعد عن المدينة ببضع كيلومترات.

وقع الخبر على بسام كالصاعقة، فهو لم يصدق بعدُ أنه خرج من جحيم الحرب في بلده، وأنه صار عضوا في عائلة محترمة. حاول الدفاع عن نفسه لكن أحدا لم يعد يستمع إليه. وعند خروجه من البيت وبعد أن خطا خارجه خطوات معدودة التفت إلى التي رعته بحنان عجيب خلال هذه الأشهر، ورمى حقيبته وعاد إليها جريا لعلها تحضنه، فهو ما زال صبيا يحتاج إلى حنان. لكن السيدة شلوصر قابلته بجفاء رهيب رغم ما تحس به من شعور طيب تجاهه.

هكذا انتقل بسام إلى المخيم، وهكذا عاد إليه الألم من جديد. ونجح روبرت. فقد ظل على اتصال بالشاب يذكّره بالذي صنعته معه هذه العائلة الألمانية، وكيف اتهمته بما لم يفعل وأخرجته دون أن تمنحه أي فرصة للدفاع عن نفسه. وراح يختزل له المجتمع الألماني كله في صورة عائلة شلوصر، ليعود في كل مرة إلى تكرار الأسطوانة القديمة: أليس الغرب هو المسؤول عن هذا كله؟

ومع الأيام تحول روبرت إلى عراب خطير يوجه الشاب الصغير كيفما يشاء. وجاءت اللحظة الحاسمة التي أقنعه فيها بضرورة تفجير نفسه بحزام ناسف، وظلت التفاصيل غائبة عن بسام حتى آخر لحظة. فقد حمله بعضُ أعوان روبرت إلى الملعب الأولمبي حيث يتجمع آلاف الألمان، ثم تواروا عنه وتركوه وحيدا.

يا لها من لحظة عصيبة، فبعدما كان بسام يعيش في عز وكرامة في كنف أسرته في حلب، وجد نفسه طريدا من مكان إلى آخر، بعضُ الناس يتلقّفه وبعضهم يلفظه، وها هو الآن يكلَّف بهذه المهمة لعله ينتقم من "الغرب"! الغرب الذي أشعل نار الحرب في سوريا، وساند الأطراف كلها لتقتتل فيما بينها. الغرب الذي باع السلاح وجنى الأرباح. الغرب الذي ينبغي أن يدفع الثمن!

وبينما بسام غارق في هذا كله لمح طيف روزا بين المتفرجين، روزا التي اتهمته ظلما وعدوانا، روزا التي تسببت في طرده من البيت. روزا التي يجب أن تموت! وفي لحظة صفاء عجيبة انسابت بين مشاعر الكراهية هذه قال في نفسه:

- لكن أليست هي أيضا روزا التي علمتني الألمانية ورافقتني إلى الثانوية أياما عديدة؟ روزا التي اختصمت لأجلي مع الشباب المتطرفين حين لحقوا بي حتى البيت؟ روزا التي اعتبرتني أخا جاءها من عالم آخر؟

وهكذا تمزق بسام بين هذا وذاك. فما يفعل؟

لم يعد بين روزا وبين الموت سوى الضغط على زر صغير لتتطاير أشلاؤها مع أشلاء الحاضرين جميعا في السماء، ويكون بسام قد انتقم من الغرب. لكن هل روزا هي الغرب؟ هل الأطفال الأبرياء هم حقا الغرب الذي طالما تحدث عنه روبرت. فكّر بسام وفكر، ثم قال في نفسه:

- لا أظن أن طيف روزا قد مرّ من أمامي إلا ليمنحني فرصة للتفكير.

إن لحظة تفكير واحدة كفيلة بأن تجنب صاحبها ما لا تُحمد عقباه.

لم يتردد بسام في التوجه نحو رجل أمن كان قريبا منه ليسلم نفسه، وما إن انتبه الشرطي إلى الحزام الناسف حتى أجبره على أن يجثو على ركبتيه، وتم إخلاء الملعب، وتعالت أصوات الفارين من شبح الموت الذي مثُل أمامهم حين رأوا مشهد الاعتقال. وتم اقتياد بسام للتحقيق معه. ورغم محاولات التعاون مع جهاز الأمن لم يتمكن من التعرف على روبرت ومعاونيه، فالأسماء مستعارة والتنكر دائم. وفي خضم التحقيق المعمق وصل الجهاز الأمني الألماني إلى حقيقة الصور التي أُرسلت من هاتف بسام.

بعد أيام تم استدعاء السيد شلوصر وعائلته لإطلاعهم على الأمر، وكان ذلك صدمة للسيدة الأم التي اعتذرت لبسام وكررت الاعتذار، ثم دعته إلى

العودة إلى البيت حال انتهاء القضية، وقبِل بسام الاعتذار، ثم التفت إلى روزا وخاطبها:

لم ينقذني من ارتكاب هذا الجرم إلا طيفك!

وبعد أن شكر العائلة على صنيعها معه اعتذر عن العودة إلى البيت من جديد، فالنفس الشرقية لا تقبل الهوان.

سِجال

على شاطئ بورنموث Bournemouth الجميل في جنوب إنجلترا كان سعيد مستلقيا على الرمل الناعم، وقد ربطت بين أذنه اليسرى وبين هاتفه النقال سماعةٌ بيضاءُ صغيرة، تصله عبرَها موسيقى هادئةٌ كهدوء البحر ذلك اليوم. لم يكن بحاجة إلى مراقبة زوجته ولا حراسة متاعه، فهذا الشاطئ من عالم لا يعرف أهله إلا الأمان.

كانت زوجته ليلى مهتمة بولدها نسيم، تسابقه حينا وتحمله حينا آخر، ثم تأخذه ليسبح، وكلما أخرجته من الماء صرخ باكيا ليعود إليه من جديد. وبين الفينة والأخرى تعود به إلى حيث أبوه لتنعم العائلة كلها بجو من البهجة والسرور. وعلى الشاطئ الطويل ترامت خِيَمٌ جميلة اتخذتها العائلات مأوى مؤقتا يحميها من حر الشمس. وحتما لم يكن لذلك المنظر الرومنسي ما يشبهه كثيرا في العالم الذي قدمت منه ليلى وزوجها سعيد.

وبينما الفرحة عارمة والسرور قد ألقى بظلاله على الناس، وبينما سعيد حقا سعيد، إذ مر به طيفُ مدير الشركة التي كان يشتغل بها سابقا. السيد بترسن Peterson الذي كان يبدو كالطير الجارح، عيناه تقدحان شررا، ولسانه لا يعرف سبيلا إلى المجاملة. وكاد سعيد يتعوذ من هذا الطيف لِما سبّبه له من قلق. قال في نفسه:

– ما الذي ذكّرني بهذا الشخص اللئيم؟ لماذا ينغّص عليّ حياتي؟ أليس من حقي أن أمضي بعضا من الوقت في سعادة؟

وعادت الذاكرة بهذا الشاب إلى أيام خلت..

حين قدم سعيد من بلاده إلى بريطانيا كان يحمل شهادة عليا في الهندسة. لقد كان يوما ما من الطلبة المتفوقين، ولكنه عندما تقدم إلى الوظيفة في شركة عمومية كبرى في بلاده لم يحظَ حتى بمقابلة تليق بما كان يحلم به. فقد كان الشابُّ - وهو لا يزال في مدرجات الجامعة - يظن أنه باجتهاده وتفوّقه ستفتح له الدنيا ذراعيها، سيعيل العائلة ويبني أسرة ويساهم في خدمة البلاد. غير أن شيئا من هذا لم يتحقق. وظل ينتظر الفرج سنوات طويلة، لكنّ الفرج في بعض البلاد يحتاج بدوره إلى فرج!!!

كان سعيد يُمضي كثيرا من ليله في كتابة الرسائل التي يوجهها إلى المؤسسات العمومية والخاصة التي يشد إليها رحاله منذ أن يستيقظ صباحا. لكنه في كل مساء لا يعود إلا والخيبة تقهره. وحين ينام على سريره يبدو كالملاك، حتى لربما أشفق لحاله من كان قلبه كالحجارة أو أشدَّ قسوة. عندها تتسلل أمه إلى غرفته لتبسط عليه الغطاء، ولا تفارقه إلا وقد ربّتَتْ على كتفيه ودعت له بالفرج القريب.

وظل المسكين ينتظر. وطال عليه الأمد تماما كما تطول فترة حكم الزعماء العرب، عندها قرر أن يترك البلد الذي فيه ذكرياته وآماله، فيه

أهله وأحبابه. وفيه الخير الكثير؛ فيه صحراء شاسعة تحوي أسرارا حتى كأنها صدر شيخ معمّر، وفيه سواحل خلابةٌ ممتدةٌ لا تُمل، وفيه جبال وهضاب وشطوط وسهول.

وفي بلده بشر كرام، فرّقهم العرق وجمعهم الدين والوطن. كانت قلوبهم يوما ما كبيوتهم مفتوحةً للجميع، يتقاسمون الآمال والآلام. كبيرُهم محترم وصغيرُهم موقّر، حقُّ فقيرهم مكفول، ومكانةُ غنيهم محفوظة. يعيشون يومهم بقناعة يزيّنها الصبر، وينتظرون غدهم بأمل جميل.

غير أن هذا الزمان صار يولّي وجهه ومعه هذا الخير كله، فالمادة صارت تطغى والقلوب أضحت تضيق، والناس في كرب شديد؛ فالشباب عاطل والعامل منهم دخله بسيط. الأسعار مرتفعة والمصاريف كثيرة. وقيمة العملة تتدنى باستمرار.

في هذا الوضع الصعب قرر سعيد الهجرة إلى الضفة الشمالية للبحر المتوسط، ولم يصل إلى الشاطئ إلا بعد أن تمثّل له الموت في أكثر من مرة، بعدما اتفق مع جماعة من الشباب على استئجار قارب صغير. ولطالما نصحه أحد أصدقائه المقربين بالتريّث لأن الأمر ليس بالهيّن. وحين أصر سعيد على تنفيذ مخططه ذكّره صديقه بفتوى -كان قد سمعها يوما ما - يربط صاحبُها بين هجرةٍ كهذه وبين ما يُعرف بالانتحار. لكن سعيد قرر ولم يعد يقبل النقاش.

لما حان موعد الرحيل اقترب من أمه ليودعها ولم يبُحْ لها بسره، إنما ادّعى أنه ذاهب إلى إحدى الشركات لعله يعود بوظيفة هذه المرة. ورافقته أمه إلى الباب فودّعها بشكل أثار داخلها الريبة والشك، لكنها لم تلحّ في السؤال بل طلبت لابنها من الله التوفيق والسداد.

وصل سعيد وصحبه إلى الساحل الإسباني وتسللوا من هناك إلى فرنسا، بعد أن انفصل عنهم اثنان. ومن فرنسا إلى بريطانيا، وليس في جعبة سعيد إلا شهادته الجامعية وقليلٌ من النقود. لكن نفسه التواقة إلى النجاح تحمل من الأمل الكثير.

كل هذا مرّ على سعيد بمجرد أن لمح طيف السيد Peterson، فراح يُسَائله ويناقشه، وقد كانت لهما جولات عنيفة. فبترسون هو مسيّرُ الشركة التي وُظف بها سعيد طيلة سنوات، ورغم قوة شخصيته وقدرته على التسيير كان يصاب بالتعصب كلما تعلق الأمر بأبناء الضفة الجنوبية. إنه التمييز العنصري في أسوأ تجلياته.

قال الطيف مدافعا عن نفسه:

– ولماذا لا تلومون أنفسكم؟ أنت مثلا يا سعيد، من دفعك إلى ترك بلدك؟ أليس نظامك هو المسؤول عن تشريد الذين يموتون في البحر كل يوم؟

– بلى، إن هذا النظام مسؤول، لكن من الذي يدعم هذه الأنظمة في بلداننا؟ وبمن تستقوي على شعوبها؟ أليس دعمكم لها هو الذي يعطيها الشرعية أصلا؟

– بل شعوبكم هي التي تقتل نفسها بصمتها! بل تشارك في الجريمة حين تنتخب من يذبحها

– إنها شعوب مقهورة. وحكم الأنظمة الشمولية قائم لا محالة سواء بالانتخاب أو بدونه

– لكن لماذا لا تتوقفون عن إعطائها الشرعية بأنفسكم؟ ماذا لو قاطعتموها؟ ربما يكون ذلك كافيا لرحيلها

– ومن يضمن مصالحكم في بلداننا إذا رحلت هذه الأنظمة؟ من يفرش الأرض ورودا لشركاتكم؟ من يحوّل العملة الصعبة إلى بنوككم؟ من يدمر الصناعة لدينا لتزدهر صناعاتكم؟ من يحارب النشاط الزراعي عندنا كي نمد أيدينا إليكم باستمرار لنحصل على اللقمة التي نأكلها؟ من يستورد مناهجكم الدراسية؟ من يدعم منظومتكم الصحية بالمال؟ ألا يطير مسؤولونا لينزلوا بمستشفياتكم كلما كانوا بحاجة إلى علاج؟ ألسنا نقتتل لتسوّقوا أسلحتكم؟ ألسنا نموت باختراعاتكم؟ أليس أبناؤنا يُحرمون من كل شيء ليعيش أبناؤكم في رفاهية مطلقة؟

–البقاء للأقوى

–بل البقاء للأصلح

– وهل تظنون حقا أنكم الأصلح؟ هذا أمر نسبي. أعتقد أن الأصلح هو الذي بنى المستشفى الذي تعالجون فيه، وأوصل إليكم منتوجات التكنولوجيا التي تنعمون بها، ووفر لكم وسائل النقل التي قضت على معاناتكم.

– وما قيمة ذلك كله إذا كان هذا "الصالح" يشرد مئات العائلات ويقتل آلاف الأطفال، وينشر الأمراض الفتاكة بحجة تجريب الدواء؟ لستم في النهاية سوى مخلوقات مادية تمتص دماء البشر لتعيش.

– ولماذا تموتون في البحر وأنتم تحاولون اللحاق بأرضنا؟

– لأننا ندرك أن لنا حقا في أرضكم. أبناؤنا يساهمون في بناء اقتصادكم مثلما ساهم آباؤنا منذ عشرات السنين، أموالنا تضخ الدماء في أجسادكم، خيراتنا أساسُ رفاهيتكم، وضعفنا أصلا يصنع قوتكم. لكنني رغم هذا أعترف بكثير من المسؤولية عما نحن فيه.

ولم يُفق سعيد من هذا السجال الحاد إلا على صوت ولده نسيم وهو يناديه ويرميه - مازحا - ببعض حبات الرمل الناعمة...

السجين

في إحدى حدائق لندن كان إبراهيم يرقد بمحاذاة مجموعة من المشردين. كان البرد ليلتها شديدا للغاية حتى أن أحدا من هؤلاء لم يغمض له جفن. وقد ارتفع قريبا من الحديقة بنيان شاهق ضم فندقا راقيا ومَرافقَهُ الكثيرة. وكلما استعصى النوم على إبراهيم رفع رأسه باتجاه الفندق فبدت له إشارات الدفء المنبعث من داخله. إنه أولا دفء العلاقات الحميمية التي يتراءى طيفها من وراء أستار النوافذ على أضواء المصابيح الحمراء الخافتة. وهو ثانيا دفء المكان الذي بات يعج بمرتاديه حتى ساعات الليل المتأخرة، وقد تناولوا من الطعام أطيبه ومن الشراب ألذه. وكلما خرج أحدهم ظل يتمايل من شدة سكره، وصار على الموظفين أن يبذلوا جهودهم ليوصلوا هذا إلى سيارته وذاك إلى سيارة أجرة تقلّه إلى حيث يريد.

كان الكهلُ روبرت كعادته يرقب إبراهيم من بعيد، وقد علم من مقربيه أن صاحب السنين الخمسة والأربعين يتخذ من الحديقة مأوى مؤقتا، فكفاءاته ورصيده "التاريخي" سيُخرجانه منها لا محالة. وكان بإمكان الكهل أن يعجّل بالتدخل، لكن خبرته جعلته يتباطأ ريثما يرتب بإحكامٍ للغاية التي يريد أن يبلغها.

إبراهيم سجين سابق، وروبرت يعلم جيدا أنه سجين، لكن ليس كباقي السجناء.

ينحدر إبراهيم من أصل فلسطيني، عاش طفولته وبعضا من سنوات شبابه في مخيم تل الزعتر بضواحي بيروت، ولا زالت ذاكرته تحتفظ ببعض ما وقع لأهل هذا المخيم في صائفة 1976.

في مدرسة تابعة للأونروا تفتقت عبقرية هذا الفتى الذي ظل شغوفا بشعر إبراهيم طوقان ونصوص أخته فدوى، فهذه وتلك كلها تحمل بعضا من عبق التاريخ الفلسطيني الذي صار جزءا من همّ هذا الصغير، فقد ظلت تلاحقه صور بيوت الفلسطينيين داخل المخيم وعليها ما يشبه السقوف، وأزقتها ضيقة تكاد تخنق أهلها، أما طرقات المخيم فلا يرى منها إبراهيم إلا مياه القذارة وهي تنساب ببطء شديد، وأترابُه يتخطونها وهم يحملون محافظهم متوجهين إلى مدرسة الأونروا. ورغم ذلك فهذه البيوت رحيمة بأهلها، تحاول أن تعوضهم عن بعض ما فقدوه.

كانت المدرسة تعرّف طلابها بالجهة التي تنتمي إليها، وتذكرهم عبر برامجها أن وكالة غوث اللاجئين ترافقهم مثلما رافقت بعض آبائهم منذ 1950. وبقدر ما كان إبراهيم يعتز بانتمائه إلى هذه المدرسة بقدر ما كان يرى في هذا التذكير ما يخدش كبرياءه، وكلما أصابه هذا الإحساس الرهيب هرع مسرعا إلى المكان الذي يخبئ فيه مفتاح بيت العائلة بجنين شمال الضفة الغربية، فهذا المفتاح أعز ما ترك له جده أبو فادي قبل أن يغادر الحياة.

لم يكن إبراهيم كباقي تلاميذ المدرسة...

حين ينصرف التلاميذ إلى بيوتهم يبقى إبراهيم ليساهم في تنظيف القسم الذي يدرس به، وحين تكرر فعله انتبه إليه المدير، لكنه لم يتدخل وظل يراقبه مدة زادت عن الشهرين، استدعاه بعدها إلى مكتبه وسأله عن الدافع الذي يجعله ينظف القسم في كل مرة.

ورد الطفل ببراءة: أليس جميلا أن نرد لهذه المدرسة الجميل؟؟؟

كانت هذه الجملة مفتاح باب واسع سيدخل منه إبراهيم عالم العمل الخيري بمساعدة هذا المدير ثم داخل الأطر التي توفرها الأونروا. ومع الأيام صار الشاب أنموذجا للمتطوع الذي يرى في خدمة الناس حياة جديدة تُمنح له كل يوم.

ما أعز تل الزعتر على نفس إبراهيم، وما أحب أهله إليه، ولكن ظروف الحياة توجب الفراق. فها هو يجني ثمار تفوقه الأولى بحصوله على منحة دراسية تؤهله إلى السفر إلى بريطانيا، ولكن ارتباطه بالعمل الخيري لم ينقطع. لقد ظل الشاب يتدرج حتى أصبح عضوا نشطا في منظمة اليونيسيف.

وكان من ضمن ما وقع أن زَحَفَ الاتحاد السوفييتي على أفغانستان ضمن فعاليات الحرب الباردة التي كانت قائمة بين المعسكرين الرأسمالي والشيوعي. وصار على أمريكا أن تجد من ينوب عنها لتعطيل المشروع السوفييتي، فحركت أجهزَتها الأمنية هنا وهناك، وكان حلفاؤها في بعض الأنظمة العربية ينفذون خططها بإحكام. ومن هنا بدأ تجنيد كثير من الشبان العرب المتحمسين للدفاع عن الأفغان.

لم تكن هذه الحرب لتراعي حقوق الأطفال، فحقوق البسطاء آخر همٍّ يمكن أن يحمله الساسة في هذا الزمان. وكلما انفجرت قنبلة وتطايرت أشلاء الصبيان في كابول كادت روح إبراهيم تُزهق في لندن. فهو لا يشغله شيء عن متابعة هذه الأخبار. وبعد فترة صار ممن اقتنعوا بضرورة التحرك لإغاثة الطفولة هناك، وتقدم بطلب إلى المنظمة، وما هي إلا أيام حتى وجد نفسه بمعية رفقائه بكابول على مقربة من جبال هندوكوش يبذل كل ما في وسعه لخدمة القضية التي جاء لأجلها، وقد أبان في مجاله عن قدرات هائلة.

صار إبراهيم يرى كابول في كل يوم تصارع الموت وهي تتهادي بين هذه الجبال كصبِيَّة راقصة، ولكن الطفولة فيها تجعلها رغم ذلك تنبض بالحياة. وحين يدخل مدارسها المحطمة ويرى أطفالها الذين بُترت أرجلهم بفعل انفجار القنابل الأمريكية والسوفيتية يقول في نفسه: كم أصيبت هذه الحضارة بالعقوق. أليس في متحف كابول من آثار الحياة ما يجعلها تستحي من زرع الموت؟ يبدو أنها حين تنظر إلى نفسها في مرآة التكنولوجيا وناطحات السحاب تغتر فتنسى أنها لا تساوي شيئا بالنظر إلى ما يخبئ هذا المتحف من منجزات حضارة تمتد جذورها إلى آلاف السنين.

وطال أمد الأزمة، ثم انتهت أخيرا بتفاهمات صار المقاتلون العرب خارج نطاق صناعة القرار المتعلق بها، بل وجدوا أنفسهم جزءا من الأضرار الجانبية التي وجب التخلص منها، فقد قضت أمريكا مآربها وحققت أهدافها، ولعل هؤلاء سيشكلون خطرا عليها إذا هم ظلوا في أفغانستان أو قريبا منها. وكان سجن غوانتامو...

إبراهيم لم يكن من المقاتلين، لذلك لم يجد المحققون الأمريكان ما يبرر سجنهم له في البداية، ورغم ذلك اعتبروه إرهابيا بمواصفات عالمية. ألا يكفي في هذا الزمان العجيب أن يكون المرء فلسطينيا ليصبح الوجه الأبرز للإرهاب؟ لقد استحدثوا له ملفا ثقيلا ملفقا، ولم يخرج من مأساته هذه إلا بعد أن صارت روائح هذا السجن تزكم أنوف المنظمات الدولية! وفي إطار بعض التفاهمات أعيد إلى بريطانيا ليكون "تحت العيون".

وفات روبرت أن إبراهيم - رغم فارق السن الذي بينهما - يكاد يكون كهلا مثله بفعل التجارب التي صقلته حتى صار يشتم رائحة المؤامرة من بعيد.

ففي غمرة المعاناة التي عاشها إبراهيم داخل هذه الحديقة، وقفت عليه امرأة حسناء تَدّعي البحث عن أخ لها شردته الظروف منذ سنوات. وحين أجاب إبراهيم بعدم معرفته لهذا الشخص أظهرت الجميلة رغبة في تقديم المساعدة له باعتباره يمثل لها شبيها بأخيها المفقود. ولم يكن ذلك سوى جسر نحو المعلومة التي يسعى روبرت إلى الحصول عليها.

تُرى هل ما زال إبراهيم يعيش بروح "الإرهابي المفترض" الذي اعتقله الأمريكان؟ هل ما زال يذكر بيوت تل الزعتر التي تتهاوى فوق رؤوس أهلها كلما هبت الريح؟ أما زال يحتفظ في ذاكرته بمفتاح بيت جده أبي فادي؟ فمفتاح البيت الفلسطيني القديم لايزال يرعب كثيرا من الأطراف!!! ما حدود التجربة التي عاشها في غوانتنامو، وما حدود علاقاته مع الذين كانوا معه داخل هذا السجن؟ ما مشاريع هؤلاء المستقبلية؟ ماذا تمثل الدول العربية لهم؛ أصفحةً طُويت؟ أم مشروعا إرهابيا جديدا؟ أم مجردَ ملاذٍ أخيرٍ يحنون إلى اللجوء إليه لعلهم يُدفَنون في ترابه؟

– هل أنت متزوج؟ كان هذا أول سؤال وجهته الغادة الإنجليزية إلى إبراهيم وهي ترمي إليه بطُعم المساعدة.

– كلا.

– ولمَ؟

– ظروفٌ منعتني.

– ألا تبحث الآن عمن تشاركك الآلام والآمال؟

– ربما

– أليس لك أصدقاء؟

– بلى. ولكنهم بعيدون.

وأدرك إبراهيم أنها ستمطره بوابل من الأسئلة فأجابها وهو مستيقن أن إلحاحها غير بريء، لذلك استبقها بالوداع وانصرف. ثم آوى إلى ركن بعيد داخل الحديقة وأخرج ورقة وقلما ليسجل بعض الملاحظات.

لقد تعززت نظرة إبراهيم إلى الحياة، وتوسعت آفاقه. لم يعد ذلك الشابَ الذي يكتفي بتنفيذ أوامر مسؤوليه داخل اليونيسيف. فاليونيسيف في بعض جوانبها تَعتبِرُ الأطفال مجرد "رهائن" تُقضى بهم الحاجات. إن له الآن مشروعا رصينا يسعى إلى تحديد أبعاده الكبرى، وهو يعلم علم اليقين أنه يختلف عن مشاريع الغرب المتعطش إلى سفك الدماء.

بعد تجربة غوانتنامو صار إبراهيم أشد تعلقا بالحياة. لكنها في نظرهِ حياةٌ تسع الناس جميعا. فهي ليست الحياةَ التي يسعى روبرت وأسياده إلى إخراج الناس منها من أضيق الأبواب.

إن هذا الذي يظهر متشردا داخل حديقة في لندن يرى المشروعَ في الحياة لا في الموت، في الحب لا في الكراهية، في الإيثار لا في الأنانية، في دعوة الناس إلى المنهج القويم الذي يحترم الإنسان، لا إلى المصلحة الضيقة التي تُذبح لأجلها الشعوب.

هكذا اعتبر إبراهيم نفسه سفيرا لحضارة شرقية عمرها أكثر من ألف عام، تقوم على قاعدة ذهبية في التعامل مع البشر على خلاف المبدأ الليبرالي الضيق، فالناس في نظرها صنفان؛ "إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق". وهذا وذاك كفيلان بضمان حق الإنسان في الحياة.

وهكذا كتب على أوراقه، مؤكدا أن الذي يضمن هذا كله هو الفهم العميق لهذه الحضارة التي شوّهَ الإعلامُ الغربي صورتها، وقدمها للناس على أنها غول قادم من

الشرق. وكان من بين الفقرات الأخيرة المسجلة على أوراقه: "إن كنت تدّعي الحكمة في الحياة فلا تحكم على الكتاب من غلافه"

كانت الليلة الموالية التي قضاها إبراهيم في الحديقة مع المتشردين شديدة البرودة، ولم يتحمل برودتَها جسمُه الذي أنهكه التعذيب في غوانتنامو، فانهار مثلما ينهار الطود العظيم.

وفي صبيحة اليوم الموالي عادت الحسناء لعلها تكمل مهمتها مع إبراهيم، لكنها وجدته ملقى على الأرض وأوراقه في يده، فهرعت إليه، وحين تيقنت من موته فزعت خوفا من أن تربط الأجهزة الأمنية علاقةً بينها وبين وفاته، فأسرعت هاربة ثم عادت لتأخذ الأوراق التي كانت بيده. وحين ابتعدت قرأت ما فيها وتريثت قبل أن تسلمها إلى روبرت.

هل هذا هو الذي يُتابَع بتهمة الإرهاب؟

كانت كل كلمة عن الحياة ذات معنى ودلالة. لكن الملاحظة الأخيرة جعلت الشابة الجميلة سوزان تفقد القدرة على النوم لياليَ معدودات..

"إن كنتَ تدّعي الحكمة في الحياة فلا تحكم على الكتاب من غلافه"

لقد أيقنت بإنسانيتها أن إبراهيم كان مشروعا وجب الحفاظ عليه، وأدركت في المقابل - بناء على تجربتها - أن روبرت ما كان ليترك هذا المشروع ليعيش. وظلت "الكلمات" تشدها إلى البحث شدا، ثم صارت تسعى لتتعرف على حقيقة "الغول" القادم من الشرق. وبعد فترة ليست بالطويلة انتبه روبرت إلى أن "مشروع السجين" صار يُؤتي أكُله حتى بعد مماته. فها هي مساعِدته الحسناءُ تقدم استقالتها لتبحث عن عمل جديد..

ملاك

في سن الخمسين أصيب أحمد بمرض جلدي في فمه، استدعى اتصاله بعدة أطباء لعلهم يعالجونه. وبدأت رحلة العذاب، فكلما أكل شيئا تصبب عرقا من شدة الألم. واستدعى العلاج الصبر الجميل.

من طبيب إلى طبيب، في هذا البلد العربي الذي يملك من الطاقات الطبية ما تَحوَّل إلى رصيد يعزز مستشفيات أوربا بالموارد البشرية. من الأطباء مَن شخّص المرض على أنه نقص في المناعة أدى إلى تعاظم قوة الفطريات داخل الفم، ورأى لذلك علاجا مضادا لها. ومنهم من رأى أنه مجرد التهابات مست الأغشية المخاطية وهي لا تلبث أن تزول. لكن من الأطباء من ذهب أبعد من هذا حيث نبه المريض إلى إمكانية إصابته بمرض مناعي يقال له بيسيت Behçet، وهو التهاب يصيب الأوعية الدموية، وليس من الصواب إهماله لأن نتائجه خطيرة جدا.

وبين هذا الطبيب وذاك ظل أحمد حائرا غير قادر على تحمل آلام المرض. وجاءته فرصة الذهاب إلى فرنسا بحكم عمله في الجامعة في إطار عطلة علمية قصيرة المدى، فقرر مراسلة بعض الأطباء بباريس لعله يحظى بفرصة فحص دقيق هناك.

على شاشة الحاسوب ظهرت أسماء كثيرة بعد أن باشر أحمد البحث عن المختصين في أمراض الجلد، فبدأت المراسلات، ورد بعضهم بالقبول، بالمجان أحيانا وبالمقابل المادي أحيانا أخرى، بينما لم يُعِرْ آخرون رسائله أي اهتمام.

وردت الطبيبة فرانسيس Camille Francès وهي إحدى المتخصصات في الأمراض الجلدية بمستشفى تونون Tenon مبدية موافقتها على فحص المريض طالبة منه مراسلتها بمجرد وصوله إلى مدينة "الجن والملائكة".

حين وصل أحمد إلى باريس كتب إلى الطبيبة رسالة إلكترونية يبلغها من خلالها بقدومه، وبعد فترة قصيرة حددت موعد المقابلة، وكان يوم الإثنين على الساعة الثانية بعد الزوال.

باريس مدينة تذكّر زائرها دوما بالنظام. فحين يقف عند قوس النصر يرى المدينة تصب فيه كأنه بحيرة تجتمع إليها السيول الإثنا عشر، وهي الشوارع الكبرى المؤدية إليه، ويحس كأن موضع هذا القوس يوجه المدينة من خلال حركة الدوران الدؤوبة التي تتمها المركبات حوله. حتى إذا أخذه الفضول أكثر واطلع على هذا الموقع من خلال صورة جوية تبادرت إليه صورة مجتمع النمل في حركته الدؤوبة الدائمة.

وباريس أيضا مدينة ليست بالخجولة، فهي تعج بالخلق الذين يقصدونها من كل مكان. فحين يصعد زائرها على عربة المترو صباحا يدرك أن العاصمة التي تتباهى ببرج إيفيل لم تعد ملكا لبلاد الغال. فالعالم كله صار يسكن باريس!

كان أحمد ورفقاؤه يركبون الميترو ليوصلهم إلى حي بارباس حيث الفندق الذي نزلوا به، وكانوا يمرون على أحياء كثيرة، وعرباتُ المترو مزودة بنظام تقني ينبّه الركاب صوتيا كلما اقتضت الحاجة ذلك، وبلغات متعددة، لكن لا حضور للعربية. حتى إذا اقتربوا من محطة بارباس سمعوا تنبيها إلى ضرورة الحيطة والحذر من اللصوص!

وجاء يوم الإثنين، وخرج أحمد وزملاؤه قاصدين قصر فانسان Le château de Vincenne الذي يذكّر بما أنجز الفرنسيون قبل قرون خلت. وتنزه الأصدقاء معا في حدائقه الغناء في انتظار موعد استقبال القراء في مركز أرشيف هذا القصر العريق.

على الساعة الواحدة زوالا ترك أحمد رفقاءه متوجها إلى المستشفى حيث تنتظره الدكتورة فرانسيس، وحين وصل لم يكن موعد المقابلة قد حان، لذلك توجه إلى

مكتب السكريتارية ليستعلم، وإذا بالموظفة تسأله: أنت إذًا المريض الذي تنتظره الحكيمة فرانسيس؟

واستغرب رد فعلها لكنه تظاهر بمروره عليه مرور الكرام، وما هي إلا دقائق حتى جاءت الطبيبة.

– أنت السيد أحمد؟

– نعم. مرحبا دكتورة

– مرحبا بك.

كان حينها منشغلا بتقديم بعض الوثائق التي طلبتها موظفة السكريتارية، لكن الطبيبة عاجلته إذ أمسكت به من ذراعه وقالت: تعال معي ودع مسألة الوثائق إلى أن ينتهي الفحص.

ولحق أحمد بالطبيبة وقد فاجأه طولها، ولكنه انتبه إلى سنها المتقدم فقال في نفسه: لا يمكن لهذا الجسد الضعيف إلا أن تكون صاحبته ذات خبره كبيرة.

ودخل مكتب الفحص، ونادت فرانسيس على مساعدة لها شابة، وما هي إلا دقائق حتى أفصحت له عن التشخيص، فقال في نفسه: لعله تشخيص كسابقيه، ثم ما لبث أن تراجع عن ذلك.

وأمرت الطبيبة مساعدتها بكتابة التقرير الذي صارت تمليه عليها كلمة كلمة، وهي تسأل أحمد عن عائلته وظروفها الصحية العامة، وكم له من الأبناء، وعن العمل الذي يزاوله. ثم طلبت من المساعدة أن تتم الإجراءات مع المريض، وقد التفتت إليه لتقول: أعتذر منك، عليّ الذهاب الآن فقد انتظرتك حتى هذا

الوقت لكيلا أفوّت عليك فرصة الفحص، ولكنني مستعجلة، فعندي حالة وفاة في عائلتي.. لقد ماتت والدتي هذا الصباح.

ونزلت دموعها في صمت.

ووقع كلام الطبيبة على أحمد موقع السيف على الرقبة، واختلجت حينها في نفسه مشاعر كثيرة اختلط بعضها ببعض. تُرى ماذا يفعل؟

أيُعزيها في فقد والدتها؟ أم يشاركها دموعها مثلما شاركته ألمه فانتظرته؟ أم يشكرها لأنها قامت بواجبها المهني على أكمل وجه؟ أم يصمت خجلا مما عملت وهي في هذا الظرف العصيب؟

إن هذا الموقف الإنساني لا يمكن أن يمر بسهولة على مَنْ نفسُه سوية.

لقد حاول أن يرقّع الخرق الذي وقع في نفسه، فقد كان يتوقع كل شيء إلا أن يكون هذا الموقف... قدّم التعزية بكلمات لم تكن كباقي الكلمات، لأنها امتزجت بشعور رهيب لم يقدر حينها على تحديد طبيعته، لكنه في كل الحالات شعورُ المُقِرّ بفضل الآخر العاجز عن تقديم المكافأة.

لو كان أحمد يومها في الضفة الجنوبية من البحر المتوسط لما وجد الطبيب. ولو حدث وانتظره الطبيب مثلما فعلت فرانسيس لكان هذا خروجا تامًّا عن المألوف.

وها هو قد خرج من المستشفى وركب الميترو وليس في نفسه ما يشغله سوى هذا الموقف. أي تضحية هذه التي تجعل امرأة تنتظر مواطنا غريبا لا حق له في

العلاج، حتى تفحصه وبالمجان، وهي تمر بهذه الظروف، وقد كان بإمكانها في أحسن الأحوال أن تكلف غيرها بمساعدته.

أهي الإنسانية في أجمل صورها وأبهى تجلياتها متجاوزةً حدود الجنس والدين؟ أم هو التدريبُ الميكانيكيُ على احترام العمل وقواعده ومقتضياته، دون الحاجة إلى ربطه بالمشاعر؟ تلك مسألة لا يفصل فيها إلا صاحبُها، فهو أحق بالحكم فيها وليس لغيره من ذلك شيء. ولكن أحمد لم يفارق مستشفى تونون إلا وهو يرى في هذه الطبيبة العجوز مثلين مختلفين:

لقد أعطت فرانسيس درسا للأطباء الكسالى من أبناء العالم المتخلف الذين يعدُّون نجاحهم في عالم الطب أو فيما يشبهه من الاختصاصات النادرة طفرةً قد أوجبت لهم امتيازات خاصة في المجتمعات، فترفعوا عن البقية لأنهم نسوا أو تناسوا أن الطب مسؤولية وواجب وخدمة قبل أن يكون مركزا اجتماعيا راقيا.

وفي المقابل أعطت فرانسيس - بتضحيتها وتفانيها في العمل - درسا للمتجبرين من أبناء العالم المتقدم الذين استخدموا علومهم لقهر الآخرين، وسخّروها لنشر الرعب والخوف، غير مبالين ببكاء الجياع وصرخات اليتامى وأنين المرضى والمعاقين.

لقد كانت العجوز فرانسيس - في كل الحالات - ملاكا يُزيّنُه المئزر الأبيض..

رقصٌ على جماجم التاريخ

"العالم أصبح قرية صغيرة"..

ها هي فاطمة تتصل - من غرفتها بالحي الجامعي بتيارت - بالفرنسية جاكلين وهي في غرفتها بحي جامعي آخر لكن في الضفة الشمالية للبحر المتوسط. إنها تسكن مدينة تولون.

كان اهتمام الطالبتين بالتاريخ قاسما مشتركا جمعهما على أحد مواقع التواصل الاجتماعي الشهيرة. وظل التعاون قائما بينهما رغم اختلاف اللسان. فهذه وتلك مختصتان في التاريخ المعاصر لحوض البحر المتوسط.

وما كان حديث الفتاتين ليقتصر على التاريخ، فبعد أن تطورت العلاقة بينهما صارتا تُمضيان بعض الوقت في تبادل أخبار الشباب والموضات والرياضة وأخبار السياسة والاجتماع. زيادة على أخبار المهاجرين التي تتصدر صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون. سرقاتٌ هنا وقتل هناك، واختطاف شاب مهاجر لابنته من زوجته الفرنسية بعدما ساءت العلاقة بينهما، وغيرها من الأخبار التي يقتات منها الإعلام في هذه الأيام.

لم تكن جاكلين تخفي امتعاضها مما يحدث داخل المجتمع الفرنسي، ومع مرور الوقت صارت تُفصح عما تحس به من ضيق بسبب المهاجرين الذين تعتبرهم سببا في البطالة الحاصلة بفرنسا وفي قلة الأمن وارتفاع مستوى الجريمة. فجاكلين مناضلة شابة متحمسة لأفكار الأحزاب اليمينية المتطرفة.

ورغم نبرة التعالي التي كانت فاطمة تحس بها وهي تتعامل مع جاكلين كانت تقول في نفسها: "لو كثر المهاجرون إلى بلدي لربما صرت أقول كلاما مشابها لكلام صديقتي حين يضيق العيش على أبناء وطني ولا تتوفر لهم فرصة لينعموا بالعيش الكريم". ثم تراجعت: "لكن فرنسا هي التي جعلتهم يهاجرون إليها يوما ما مستغلة إياهم حتى يمنعوا اقتصادها من السقوط، فما بالُها اليوم تتبرأ منهم؟ إن لهم حقا في تلك الأرض بشكل من الأشكال"

إن الحياة التي تحياها جاكلين والأفكار التي تزداد إيمانا بها كل يوم تقف حائلا بينها وبين البسطاء من الفرنسيين، فلا تنظر إلى أحدهم إلا من أعلى، فكيف إذا تعلق الأمر بغير الفرنسيين. ذلك أن كثيرا من البشر في تقديرها ليس لهم إلا الموت، فهم زيادة لا ضرورة لها، وعبء على الحياة ينبغي أن يزول.

بيد أن ذكاء هذه الفرنسية وحرصَها على مصالحها جعلاها تربط علاقات مع أناس خارج فرنسا، لأنها لا ترى في هذا عيبا ما داموا على غير الأرض الفرنسية، لذلك تعلقت بفاطمة وصارت تعطيها أدق التفاصيل عن حياتها الخاصة وآمالها في المستقبل، فأمثال جاكلين لا يجدون في مجتمعاتهم بسهولة من يلجؤون إليه ويصادقونه.

وهكذا تعرفت فاطمة عبر الماسنجر على جزء هام من حياة جاكلين، فصور البيت الواسع والحدائق الغَنّاءِ التي تحيط به والمسبح الفسيح الذي في داخله تصلها من صديقتها باستمرار، وصورُ الفساتين الجميلة وأدوات الزينة الراقية والأحذية التي تحمل ما يدل على ماركاتها الرفيعة تنساب عبر الماسنجر كل حين، وفاطمة تتلقاها في كل مرة مبديةً إعجابها الشديد ومتمنيةً لصاحبتها دوام الصحة والعافية.

غير أن صورة انسابت بالخطأ ضِمن غيرِها من الصور جعلت الفتاتين تراجعان علاقتهما الحميمية من الأصل. فبينما كانت جاكلين تتبادل الحديث بالماسنجر مع إحدى قريباتها ذوات الفكر اليميني ذاته وترسل إليها ببعض الصور من حاسوبها، ضغطت على أحد الأزرار بالخطأ وإذا بصورة مشرد زنجي - يلتقط من القمامة ما يأكل - تصل إلى فاطمة وتحتها الصورة تعبير صادم.

وارتجّت فاطمة وتلعثمت فلم تصبح قادرة على الرد على صديقتها التي كانت تبدو في نظرها في قمة الحضارة. وتساءلت: "أهي صورةٌ دُست على صديقتي من قِبل شخص آخر؟" ثم ما لبثت أن أعادت قراءة التعليق من جديد. "ما قيمة هذا الشيء الأسود؟ لوكان أمامي لأطعمت كلابي من لحمه".

أقفلت فاطمة جهازها وانزوت تفكر في الموضوع. لقد كانت دوما صادقة مع جاكلين، فلم تخفِ عنها شيئا طوال الفترة التي كانت تراسلها خلالها، ولم تكذب عليها إطلاقا، حتى إنها كانت تخبرها بتفاصيل حياتها البسيطة، ولم تجد حرجا في تزويدها ببعض الصور التي ترسم يومياتها مع إخوتها الصغار في فناء بيتهم المتواضع وهم يداعبون بعض الخرفان التي تقوم حياتهم كلها على تربيتها.

وراحت تتساءل مرة أخرى: "ترى هل أختلفُ عن هذا المشرد الزنجي في نظر جاكلين، أم أنا مجرد صورة له لكنها مقبولة ما دامت لم تخرج من إطار شاشة الحاسوب؟" ثم نُكِست على رأسها: "لماذا أسيء الظن بمن وثقتْ بي زمنا وأفشت لي أسرارها، وشاركتني طويلا فرحتها وآلامها؟".

وباتت على هذه الحال، مترددة فيما تفعل، حتى إذا عادت من الجامعة في اليوم الموالي قررت الاتصال بالفرنسية لتعرف حقيقة الأمر. وما هي إلا لحظات حتى

باشرتها بالسؤال عن الصورة والتعليق. وحاولت جاكلين التهرب من الإجابة ولكنها في النهاية أقرت بالحقيقة. فهي ابنة مسؤول فرنسي يميني لا يرى حلا لمشاكل فرنسا إلا بسحق العالم المتخلف، ولعل الحل العاجل يستدعي البدء بالمهاجرين.

وبدأ النقاش يزداد حدة، خصوصا وقد أحست فاطمة بغبائها حين لم تكتشف أن جاكلين كانت مجرد ممثلة طوال هذا الوقت. وكلما توسع النقاش أكثر بدا للطالبتين أنهما على طرفي نقيض. ووصل بهما الحديث إلى قضية الاستعمار دون أن تشعرا. فالاختصاص يجعل صاحبه سجينا له مهما توسعت آفاقه ومداركه.

حاولت جاكلين تبرير موقفها والدفاعَ عنه بقوة، معتبرة الاستعمار نعمة "بيضاء" على بقية الشعوب، وراحت تعرض على صديقتها إنجازات الرجل الأبيض التي يشهد عليها ما يحويه متحف الإنسان بباريس. وتذكرت فاطمة لحظتها أن صديقتها أخبرتها يوما أن منصبا ينتظرها بمجرد تخرجها من الجامعة. لقد وعدها أصدقاء والدها بالتوظيف بهذا المتحف.

متحف الإنسان..

لقد قرأت فاطمة عنه كثيرا ضمن برنامج السنة الماضية. فهي تعرف أن الذي أنشأه عام 1937هو بول ريفي Paul Rivet عالم الأعراق الشهير، ووضع فيه ما اقتنى الفرنسيون منذ القرن السادس عشر. وأن من ضمن ما يحوي جماجمَ لبشر لا علاقة لهم بالأرض الفرنسية. وما آلم فاطمة أكثر أن مجموعة من هذه الجماجم نقلها الفرنسيون من الجزائر.

لذلك سألت جاكلين بحدة: "وماذا يعني لك متحف الإنسان هذا؟" ثم قاطعتها قبل أن تجيبها: أليس مقبرة لآلاف الجماجم التي استقدمها أجدادك من هنا وهناك؟

صمتت جاكلين هنيهة ثم راحت توضح وجهة نظرها. فهي ترى أن هذا المتحف ذاكرة تجمع جزءا من تاريخ البشر، مهما كان هذا التاريخ، وبغض النظر عن الذين صنعوه. ولو أن هذه المعروضات لم تُحفظ فيه لطالها النسيان، ولما استفاد العلم منها الحديث.

أخبريني بربك - ردت فاطمة -كيف ستنصرفين من عملك في المستقبل مرتاحة البال وخلفك ثمانية عشر ألف جمجمة تشهد على فظاعة تاريخك؟ كيف ترضين أن تظل جماجم أجدادي من زعماء المقاومة الجزائرية في الصناديق؟ ألا ترين أنه يحق لها أن تعاد لتدفن في الأرض التي ماتت لأجلها؟ كيف ستستطيعين النوم وأنت تصبحين وتمسين كل يوم وليلة على رؤية الجماجم التي تذكرك بما فعل السفاح هيربيون Herbillon في الزعاطشة أو ماكماهون Mac-Mahon في بلاد القبائل أو دوروفيقو De Rovigo قبلهما حين أباد قبيلة العوفية عن بُكرة أبيها؟ كيف يكون شعورك وأنت تطّلعين على الجمجمة التي تحمل رقم 5941 وتعرفين أنها للشيخ بوزيان الذي مات وهو يدافع عن واحته؟ أو الجمجمة ذات الرقم 5942 التي صاحِبُها موسى الدرقاوي الذي توفي وهو يساعد ثوار الواحة بعد أن غزتهم الجيوش الجرارة؟

ستظل هذه الجماجم والصور تذكرك يا جاكلين بفظاعة الفعل الاستعماري، وتحدثك عن شعوب كانت آمنة مطمئنة حتى إذا غزاها الرجل الأبيض حوّل حياتها إلى جحيم، فجاعت وهي صاحبة الخيرات التي لا تعد ولا تحصى، وشُردت وهي مالكة الأرض فلم تعرف منذئذ أمنا ولا استقرارا. ستقفين بنفسك على المجاعات التي تسبب فيها أجدادُك، والأوبئةِ التي حملوها معهم وهم يغزون المناطق البعيدة.

وماذا أنتم فاعلون أصلا بهذه الجماجم؟ هل ستحيطونها دوما بالسرية التامة، أم تُراكم ستخرجونها للعامة لتتحول إلى فرجة للكبير والصغير؟ وعندها لن تكون

أُجرتُك الشهريةُ إلا من قِطعِ اليورو التي ستجمعها إدارتكم من العجائز والصبيان. والغريب أنكم إلى الآن تعتبرونها مُلكا فرنسيا بحتا، وتغلّفون جبروتكم بكذبة الغايات العلمية التي يتوخاها علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا.

إن الجماجم التي فضحت تاريخكم تأبى أن تندثر، ستبقى بينكم وفي متاحفكم لتشهد على حاضركم العنصري مثلما شهدت على ماضيكم الدموي. وستظل تذكركم أن الإنسانية متحدة ضد التمييز وإن تعددت ألوانها، وأن الأيام دول، وأن التاريخ لا يرحم أحدا.

تواصُل

امتدت يدها الرقيقة إلى الكتاب رغم بعده عنها في رفٍّ عالٍ، ثم سلمته إلى بائعه فوضعه داخل كيس بلاستيكي يليق به. دفعتْ ثمنه وانصرفت، وليس في نفسها رغبة أشد من رغبتها في قراءته.

حين صعدت إلى عربة المترو لم تجد مكانا شاغرا يمكنها الجلوس فيه، ورغم ذلك فتحت الكتاب بعد أن تمعنت زمنا في عنوانه. وراحت تلتهمه التهام الجائع العطشان المتلهّف إلى ما يقيم صُلبه. هذه عادتها. لا تتم قراءة كتاب حتى تباشر قراءة كتاب آخر.

في بيت السيدة سلمى قاعدة ذهبية. لا ينام أي فرد في العائلة إلا وهو يمسك بشيء يقرؤه. ولذلك كبرت ابنتها رجاء محبة للكتاب شغوفة بمعرفة الجديد في عالم الطباعة والنشر. وحين تسمع بمعرض للكتاب تنشرح نفسها وتعوّل على الرحيل إلى المدينة التي ينظّم فيها، ولا تقِلُّ سعادتها حينها عن سعادة من يستعد للخروج في نزهة مع أحبابه وخلانه.

وها قد جاء معرض فرنكفورت الدولي للكتاب، ورجاء تسكن في ضواحي المدينة ذاتها، لذلك ترى دائما أنها محظوظة حقا لأنها تستطيع زيارة المعرض خلال كل أيامه.

عاشت رجاء في ألمانيا منذ صغرها، والتحقت بالمدرسة وتعلمت اللغة، وذلك بعدما هاجر بها والداها من الخليج الذي قضيا به سنوات. فهما من فلسطين، ولعل الظروف لم تعد تناسبهما في الخليج بعد أن وقع بعض من التحولات.

رجاء تقرأ كل ما يُكتب، رغم أنها لازالت في عمر الشباب، ويستهويها أكثرَ كلُّ كتاب يعالج القضايا الإنسانية والمشاكل الخاصة بالفئات المحرومة والمشردين والذين لا مأوى لهم. وقد ظهر عليها منذ صغرها تعاطفُها مع هؤلاء حتى لو كانوا من ألمانيا نفسها. وتراها تقتني ما تنشر الجمعيات الخيرية ودُور رعاية المسنين، بل حتى منشوراتِ المؤسسات الدينية المسيحية التي تقدم الرعاية للمهاجرين والعاطلين عن العمل.

وزاد من قوة رجاء إتقانها للإنجليزية، فوالداها لهما من الرصيد الأدبي ما جعلهما ينقلان إليها هذه اللغة منذ صغرها، وهما أصلا قادمان من بيئة تحتل فيها الإنجليزية محل الصدارة، زد على ذلك نباهة هذه الشابة منذ صغرها وحُبَّها للتعلم.

ومما عزز قوة هذه الشابة أيضا أنها كانت على علاقة طيبة بجمعية أسسها شباب من أصول شرقية، فما أجمل أن تجد من يذكرك بجذورك وأنت تعيش في العالم الغربي، لأنك حينها ستكون حتما بين قوتين تتجاذبانك؛ بين أصولٍ تشدك إليها شدا وواقعٍ يفرض عليك القبول بكثير من التحولات.

في يوم عطلتها الأسبوعية ركبت رجاء عربة الترامواي وتوجهت إلى معرض الكتاب، وكانت قد اتفقت مع بعض أعضاء الجمعية على اللقيا هناك. سارت العربة، ورجاء مهمومة بما تقتني اليوم، وكانت سرعة الترامواي البطيئة قد جعلتها تغوص في بحر من الأحلام، لكنها أحلام لا تتعلق إلا بعالمها المحبوب؛ عالم الكتاب والكلمة، عالم الفكرة والحجة، عالم الصراع الذي لا يهدأ، صراعٍ من نوع خاص لا يتجسد في البداية إلا على أوراق صغيرة لينتهي في الأخير إلى عالم الواقع فيغير منه بالقوة الشديدة في كثير من الأحيان.

لكن من أين تبدأ رجاء رحلتها في هذا المعرض الكبير؟ أمن أجنحة الكتب المتعددة، أم من حيث تنطلق المحاضرات والنقاشات العلمية والفلسفية، أم من جهة العروض السمعية البصرية المختلفة التي تقدمها المؤسسات الثقافية للزائر خلال أيام المعرض؟

وها هي تلتقي بجماعتها حسب الموعد. وانطلقت رحلة البحث، وفيها متعة لا تغمر إلا من تعلق قلبه بعالم الكتاب، وظلت رجاء تجمع من الكنوز ما جعلها سعيدة أيما سعادة، حتى وقعت عينها على مؤلَّف جديد يعالج قضية "التطبيع" فتوقفت أولا عند اسم المؤلِّف، ثم دفعت ثمنه ومضت للبحث عن غيره. وما هي إلا أيام حتى قررت مناقشة أفكاره مع زملائها في الجمعية. فهذا هو الكتاب الأكثر إثارة ضمن مقتنياتها خلال هذه التظاهرة.

كان الكتاب في نظر هؤلاء الشباب يحمل توجها جديدا لم يعتد عليه العرب من 1948. وبدا لهم أن الظروف الدولية والضغوط المتتالية تُؤتي أكلَها كما تشتهي الصهيونية العالمية. فمجرد فتح باب النقاش حول مسألة التطبيع يُعد انتصارا باهرا تحققه هذه الحركة.

وعارضهم زميلهم رؤوف. فالنقاش وحده - في نظره - لا يمكن أن يؤثر على طبيعة العلاقات في الشرق الأوسط، لأن الشارع العربي يحمل من الحماس للقضية الفلسطينية ما يجعل كثيرا من الأطراف تتريث بالضرورة قبل أن تقدم على اتخاذ أي خطوة جريئة.

وتحفظت زميلته صفاء مبدية رأيا مفاده أن الحماس العربي عاطفي بالدرجة الأولى، وهو لا يلبث أن تخمد ناره مع مرور الوقت. وتعززت فكرتها بتدخل شابة

أخرى بينت للحاضرين بالحجة الدامغة أن فتح باب النقاش حول مسألة التطبيع يجعل الناس يعتادون عليها، ولو أبدوا في البداية مواقف صلبة رافضة للقضية من أساسها. حتى إذا اعتادوا لم يعد بإمكان الفكرة ولا تطوراتها بعد ذلك أن تستفزهم من جديد.

وجاء دور رجاء، فلم تتكلم. ظلت واجمة لبعض الوقت حتى ألحت عليها صفاء. إن الذي يشغل بالها كفلسطينية شابة هو السبب الذي يجعل هذا الكاتب وأمثاله يجنحون إلى هذا الطرح أصلا. كيف بدأ هذا الانشقاق الفكري ومتى بدأ؟ كيف ظهر هذا العقوق لقضية ظلت محور القضايا لأكثر من نصف قرن؟ ثم من أين بدأ العقوق؟ أمِنَ الشارع العربي الواسع أم على مستوانا نحن الفلسطينيين؟ ومن منا الذي بدأ؟ المواطن البسيط الذي انشغل حين التفت إلى حياته يؤمّنها كغيره من البشر؟ أم المسؤول الذي أعطى نفسه حق التفاوض على قضية ليست قضيته وحده؟

وانفض هذا المجلس الصغير دون أن يقتنع أحدٌ بفكرة أحد. فكل له وجهة نظر يصعب تغييرها في جلسة واحدة. وعادت رجاء إلى البيت وهي تحمل جبالا من الهموم.

وحين وصلت صارت - من قلقها - تفكر وهي تتمتم أحيانا وترفع صوتها أحيانا أخرى مرددة كلمة "التطبيع". وانتبه والدها إلى الكتاب فربّتَ على كتفها، ثم جلس على الأريكة وأخذ نفسا عميقا..

ما الذي يقلقك يا ابنتي؟ هذه مجرد كلمة كغيرها من الكلمات، فذاكرتي لازالت تحتفظ بمصطلحات مماثلة لا تقلّ إيلاما كالنكسة والنكبة، والشتات والعودة،

والهدنة وخط الهدنة، و"اللاجئين"، وبأسماء المخيمات التي قضى فيها كثير من أهلي؛ "تل الزعتر" "عين الحلوة" "اليرموك" وغيرها.

لم يعد مصطلح التطبيع فقط هو الذي يقهر الفلسطينيين. خذي مثلا مصطلح "النكبة" وانتبهي إلى أبعاده. إن الحق الفلسطيني كله تم اختصاره مع الأيام في خيمة، ليتحوّل الحفاظ عليها منذ ذلك اليوم إلى بديل عن الحفاظ على الأرض. وهذه وتلك أقدارٌ من الظلم أن نجعل الفلسطيني وحده هو المسؤول عنها.

وماذا يعني التطبيع أصلا يا رجاء؟ وهل ترينه وليد اللحظة؟ ألم يكن التفريط في الأرض أول مرة أبرز أشكال التطبيع؟ ألا ينطبق معنى التطبيع على من كانوا يشترون الأراضي من بني جلدتهم في فلسطين ثم يبيعونها خفية لليهود؟ أليس التطبيع مرتبطا بمواقف الأجنحة السياسية العربية التي قتلت كل أمل في القوى العسكرية منذ 1948؟ ألم تقرئي عن صفقة الأسلحة الفاسدة والانتكاسات العربية المتتالية، وكامب ديفيد وأوسلو ومفاوضات السلام؟

وما معنى أن يقوّي أحدهم علاقاته اليوم بأمريكا وبريطانيا وهو يعلم علم اليقين أن الكيان الإسرائيلي ما قام إلا بهؤلاء؟ أيكون حينها حقا رافضا للتطبيع أم إنه في الواقع يرفع شعارات يخالفها من الناحية العملية؟ إذًا ليس ضروريا أن يكتب أحدهم مقالا يصرح فيه بقبوله لهذه الفكرة حتى نعتبره قد انحاز إلى الطرف الآخر. فالعبرة بما نرى لا بما نقرأ..

كانت السيدة سلمى تنصت إلى حديث زوجها وابنتها وقد طغت عليها مجموعة من المشاعر اختلط السرور فيها بالألم الشديد. فسلمى قارئة نهمة، متابعة للشأن الفلسطيني كأغلب الذين رمتهم الأقدار خارج حدود أرض الإسراء. وحتى إن عاشت في

ألمانيا فإنها تغبط الذين يحاصرهم الغبن كله في أريحا، أو في غزة وخان يونس أو حتى في عكا وحيفا. ألا يكفي أنهم يشتمّون رائحة الزعتر ويمتّعون أعينهم بمناظر الزيتون في كل صباح؟

تفتقد سلمى كل شيء. تفتقد الأهل الذين ظلوا هناك كما تفتقد الأرض التي اغتُصبت. تأوي إلى الذكرى لتستحضر طِيب الأيام الخوالي، كما تحن إلى الأمل لعله يخلّصها من ثقل الماضي والحاضر. حتى أحلامُها صارت قطعة من فلسطين. لم تُغير فيها الحياة في المهجر جوهر الفلسطينية المُهجَّرة.

إن ألم شعور سلمى الدائم بالنكبة والنكسة والمخيم والتهجير لا تخفف منه إلا رؤية ابنتها وهي تحمل همّ القضية الفلسطينية. إن مصطلحا واحدا من أمثال مصطلح التطبيع كفيل بأن يجعل القضية حية. فحضوره ليس له إلا معنى واحد؛ معنى الشك لدى الأجيال الجديدة فيما صار يُعتبر عند "دوائر الخيانة" من المُسَلّمَات.

وتدخّل أبو رجاء..

- وهل تظنين يا سلمى أن جميع المهجرين لا تزال نفوسهم تشتعل شوقا إلى الأرض المغتصبة. بعضهم يكاد ينسى اسمه الفلسطيني. أنا أعرفهم. إن زحمة الحياة خصوصا في البلدان الغربية طغت فألهتهم وشغلتهم.

لكن سلمى تخالفه الرأي: وأين نعيش أنا وأنت؟ ألسنا في دولة أوربية؟ فلماذا لم تشغلنا الحياة بهرجها؟ إنها قضية مبدأ. من كان له استعداد لبيع قضيته لا يحتاج إلى بيئة غربية ليفعل ذلك. أم إن الأمد يُنسي حين يطول؟ على أي حال أخشى أن تموت قضيتنا بالتقادم.

أن نحلم بالدار...تلك هي القضية

ليس لنا خيار...في الصبح والعشية

وضحك أبو رجاء. فهو يعرف أن زوجته متعلقة بالشعر، لكن أن تقول شعرا جيدا فذاك أمر آخر. بيد أنه توقف مليا عند جملتها الأخيرة، فالخوف كل الخوف أن تموت القضية فعلا بالتقادم.

ويبدو أن سلمى قد وقفت على شيء ما جعلها تقول ذلك.

اعتادت أم رجاء مشاهدة برامج القنوات التلفزيونية العربية خصوصا خلال شهر رمضان. ففي بعضها تسلية وتسرية. غير أنها مرت على بعض القنوات الخليجية التي تعرض مسلسلا تاريخيا يصور حياة اليهود في الخليج، وآخر يعالج قضية التطبيع معهم. وانتابها الحزن. فهي لم تعد ترى التطبيع مختبئا لا يطل برأسه إلا في الرياضة وفي المهرجانات الثقافية التي لا يحضرها إلا قليل من الناس، وإنما صارت تشاهد ذلك كغيرها من خلال المسلسلات على شاشات التلفزيون. إن هذا هو التدجين بعينه.

والتفتت إلى زوجها تسأله: تُرى هل ستقبل الشعوب العربية هذه الخطوة الأخيرة؟ هل سيسمح الآباء لأبنائهم وبناتهم بمتابعة هذه الحلقات من باب الحرية وضرورة الاطلاع على موروث الآخر، أم سيقفون في وجه هذه التحولات التي ستحمل معها حتما كثيرا من المفاجآت.

هز الرجل رأسه وقال: الأيام القادمة كفيلة بتقديم الإجابة الكافية.

وتذكر قصيدة كان قد قرأها قبل فترة وجيزة، ينقِمُ صاحبُها على من يلهثون وراء سراب التطبيع، وهم في النهاية يقدمون أكثر مما يأخذون:

يا صاحبَ التطبيع

وقّع وانسحبْ

فملوكُ الشرقِ ولّت

وجهها شطر الذَنَب

املأِ الأرض صراخًا واكتئبْ

افرُكْ يديك امتعاضًا وانتحِب

اترك سلاحك يسْتَرِحْ من ذُلِّه

فلطالما سئِم الكذب

واهجر منابرَك التي

كرهت صعودَك وانسحب

أين الخُطبْ؟

أين القوافي والأدبْ؟

أين القصائدُ أرعبت

من هولها جيشا هَرَبْ؟!

أين الملوك تلألأت تيجانها

وسْطَ الكذبْ

هاذي شموسُكَ لم تعد

تُهْدي شروقا مِن ذهب

هاذي شموعُك لم تعد

تهب الضياءَ من اللهب

قدّم الآن اعتذارا

وانسَ أيامَ العرب

****

يا صاحبَ التطبيع

أفرِغ دكاكين السياسَة

واتركْ دواوين الرياسَة

واتبع دروب المفسدينْ

لتُبَاعَ في سوق النِخاسة

انزع شِماغَكَ إنه

يروي حكاياتِ انتكاسة

صافح أيادي الغاصبينْ

فالقدسُ قد هتكوا لباسَه

كل المدائن أيقنتْ

أنها أضحت مُدَاسَة

واسأل عن مَهمّتِك التي

لم تعد تعدو الحراسة

****

يا صاحب التطبيع

وقّع واعتذر

عن كل حق قد هُدِر

عن كل بيت قد هُدِمْ

أو كل معدومٍ ظُلِم

عن سرّ أحلامِ الصبايا

مَسَّها همٌّ وغَمْ

****

يا صاحب التطبيع

بركانُ شعبِك يضطربْ

والجمعُ ثاوٍ يرتقِبْ

فاحمِل جوازَك وانسحبْ

وتحسّرت أم رجاء وبكت..

وتذكرت الأيام التي قضتها في مخيم تل الزعتر، فهي أخت لإبراهيم السجين، وقد افترقا منذ زمن الحرب الأفغانية الروسية. وإذا كان إبراهيم قد انتقل إلى بريطانيا للدراسة فإن سلمى التحقت بزوجها في الخليج.

كان زواجها من ابن خالتها قد نقلها من المخيم المنكوب إلى عالم آخر، حيث صارت ترى البنايات الشاهقة، وتركب وسائل نقل حديثة، وتسكن بيتا يليق بكرامة الإنسان.

هي غير نادمة على الأيام التي أمضتها في هذا المخيم، فهي على مرارتها تحتل في نفسها موضعا كالزيتونة التي تأبى أن تموت، وقد صار المخيم ذاته يحمل جزءا من تاريخ الألم الفلسطيني، ولكنها حينما تفكر بالعقل تشفق على الذين لا يزالون يعيشون فيه.

ثم ما يلبث الحنين أن يعيدها إلى المربع الأول. فتل الزعتر يحفظ ذكريات جميلة تستعيدها سلمى مع أم جوزيف المسيحية التي كُتب على أهلها ترك أرضهم واللحاق ببيروت، ثم ساقهم القدر ككثير من الفلسطينيين إلى ذات المخيم، فصارت هي وسلمى تلعبان معا وهما طفلتان صغيرتان.

وشاء القدر أن يجمع السيدتين مرة أخرى بمدينة واحدة في ألمانيا. فأم جوزيف تشتغل بمقهى تمر عليه صديقتها عادةً وهي متجهة إلا السوبرماركت فتلقي عليها التحية، حتى إذا رأتها غير منشغلة بخدمة الزبائن وقفت معها هنيهة لتغوصا معا في عالم الذكرى.

سألتها يوما أم جوزيف:

- أتذكرين يا سلمى يوم سقط أخوك إبراهيم في الوحل؟

- أجل أذكر. وأذكر أن خالك حنّا هو الذي انتشله وأخذه إلى بيته وألبسه ثياب ابنه ميلاد ثم أعاده إلينا نائما يحمله بين يديه.

كان إبراهيم يومها في الخامسة، ولكن الحادثة انطبعت في ذاكرته، فكان كلما تحدثنا في الموضوع يقول إنه لا يزال يذكر عطف خالك عليه في تلك اللحظة الرهيبة، حتى إنه لَيستحضرُ الدفء الذي غشيه حينها وهو مغمور في بقايا الوحل والماء.

- نعم وأنا لا زلت أذكر الفرحة التي صنعها هذا الفعل على مستوى أسرتكم. لقد كنا جميعا عائلة واحدة رغم ظروف القهر والحرمان اللذين عشناهما.

- وأنت يا أم جوزيف، أما زلتِ تذكرين الأرجوحة التي كنا نستبق صباحا للعب عليها ولا نعود إلا وقد امتلأت ثيابنا ترابًا وأجسادنا كدماتٍ من كثرة السقوط؟

إيه! إنها الأرجوحة البسيطة التي صنعها لنا أبو محمود إمام المسجد حين رآنا نختصم مع الأولاد وهم يرفضون السماح لنا بمشاركتهم اللعب. لقد ظللت أحب ذلك الشيخ وأحترمه منذ تلك اللحظة.

تحمل أم جوزيف هذه الكنية تيمُّنًا رغم أنها لم تنجب لا جوزيف ولا غيره، ونظرا لعلاقتها القوية بسلمى صارت تحب ابنتها رجاء، حتى تحولت هذه البنت إلى قاسم مشترك آخر يجمع السيدتين، بعد القاسم المشترك الأكبر المعبر عنه في مصطلحات القضية الفلسطينية بحق العودة. فهل يا ترى يطول العمر بهما حتى تستعيدا حقهما في العودة؟

قُبلةٌ على جبين "السين"

رنّ المنبه على الساعة السابعة، استيقظت سلمى وقامت متثاقلة تقصد غرفة ابنتها رجاء، فتحت النوافذ وسحبت ستائرها جانبا ثم أيقظت الشابة وطلبت منها التوجه إلى المطبخ لتناول فطور الصباح. على أن تعود بعد ذلك مجددا إلى غرفتها لتجهّز حقيبة السفر. إنها متجهة إلى باريس عبر القطار السريع.

في باريس ومنذ ثلاثين عاما يسكن خليل عم رجاء، وهو جارٌ لكثير من الجزائريين، وتجمعه بهم رابطةٌ قوية. فكلَّ مساء يتجمعون في مقهًى صاحبُه تونسي، وليس لديهم ما يشغلهم أكثرَ من أخبار الأسواق والتذاكر وأثمان الشقق والرعاية الصحية، بيد أنهم يتحدثون أحيانا في السياسة ويناقشون الوضع في الدول العربية، ويأتيهم خليل بكل جديد على الساحة الفلسطينية.

خليل فلسطيني مولع بحب الآثار القديمة والشوارعِ العتيقةِ حيثما كانت، والسياراتِ التي لم تعد تجوب الشوارع. هو من جيل يعيش نصف يومه ملتفتا إلى أمسه، يشده الماضي ويأسره الحنين. لم يشبع من "شقاوة" الطفولة ولا من طيش الشباب. ضاع ذلك كله حين طُرد من بيته مع أهله والتحق بمخيم تل الزعتر وهو ابن سنتين اثنتين فقط.

يعيش خليل في باريسَ التي يحلم برؤيتها ملايين البشر في الدنيا، ومع ذلك ليس له منها إلا دكاكين الخردوات القديمة المتنقلة، يتتبع مواضعها عبر الأنترنت، والمتاحفُ التي ليس فيها إلا ما "أكل عليه الدهر وشرب"، يزورها باستمرار كالذي يتفقّدُ عزيزا يرقد في إحدى المقابر. تلك هي عقدة هذا الفلسطيني الذي تحالفت ضده قوى الشر

ومنعته من العودة إلى أرضه واستعادة بيته، فصار يحاول تعويض الغالي والنفيس "بخردوات" باريس.

حين انفض "مجلس الشيوخ" بالمقهى التونسي عاد خليل إلى بيته، فتح الباب فإذا برجاء جالسة مع عائلته ينتظرون جميعا عودته. قفزت الصبية باتجاه عمها الذي احتضنها بقوة، ثم أجلسها بالقرب منه وصار يسألها عن أبيها وأمها، وعن أخبار دراستها، ثم استرسل يسائلها عن جديد عالم الكتب، فهو يعلم شغفها بالقراءة ويشجعها دوما على ذلك.

وحين خلا له الجو ولم يعد معه غير رجاء سألها في خجل عن أم جوزيف. أهي بخير؟ قالت: نعم. لقد رأيتها منذ أيام فقط.

ثم راح يتقصّى أخبار أم جوزيف كأنه مراهق عاشق. لم يكن سهلا عليه نسيانها. فقد أحب كل منهما الآخر وهما في المخيم، غير أن هذا الفضاء الجميل - الذي جمع شمل كثير من الفلسطينيين على قساوته ورغم اختلاف مشاربهم الدينية والطائفية - لم يستطع إذابة حدود الاختلاف الذي صنعته التقاليد. فالأسرتان الكبيرتان؛ أسرة "جودة" وأسرة "عون" اجتمعتا معا على منعهما من الزواج. لقد صرخ أبوه في وجهه ذات يوم: ألا ترى أنك مسلم وأنها مسيحية؟

في اليوم الموالي خرجت رجاء وبنات عمها للتجوال في المدينة، وبقدر ما هالتها عمارة باريس، بقدر ما أشفقت على الأجانب الذين ماتوا وهم يشيّدون "حضارة فرنسا" بالقوة أحيانا وبالإغراء أحيانا أخرى. ولما بدا لها برج إيفل la Tour Eiffel عاليا شامخا تراءت لها صورة أطنان الحديد وهي تُسرق من المستعمرات، وحين مرت على تمثال "ساحة الجمهورية" الشهيرة ذكّرتها ابنة عمها ليلى بمظاهرة قام بها السود

والملوّنون مؤخرا بذات الساحة تنديدا بسياسة التمييز العنصري التي مازالت مستمرة بفرنسا.

وهذا الوادي الكبير، ما قيمته التاريخية؟

أجابتها ليلى: إنه نهر السين La Seine. أهمّ نهر في باريس، يقسمها إلى قسمين، يطل أحدهما على الضفة اليمنى ويطل الآخر على الضفة اليسرى. وفي النهر جزيرة جميلة تسمى "جزيرة المدينة" L'ile de la cité وهي تقع على مقربة من الحي اللاتيني. سآخذك إلى هناك، فالمكان يستحق الزيارة.

وللنهر طبعا خصوصية تاريخية لها علاقة بنا.

- بنا نحن؟ كيف. هكذا ردت رجاء في استغراب وحيرة.

- في بداية ستينيات القرن الماضي ابتلع هذا النهر جثث مئات الجزائريين بعد أن خرجوا في مظاهرة منددة بالاستعمار الفرنسي لبلادهم.

تعلقت رجاء بالحكاية، وطلبت من ابنة عمها أن تفصل أكثر، فالقضايا التاريخية تستهويها أكثر من أي شيء آخر. غير أن ابنة عمها ردت مازحة: أتريدين أن نمضي اليوم كله في الحديث عن التاريخ. اسألي عمك حين تعودين إلى البيت.

وبمجرد أن تناول أفراد العائلة العشاء أخذت رجاء بيد عمها إلى الصالون، وجلست بالقرب منه وطلبت إليه أن يحدثها عن نهر السين، وعن حادثة إغراق الجزائريين فيه، لكنه لم يُشبع رغبتها في المعرفة، ووعدها أن يأخذها إلى صديق العائلة العم إيدير ليحدثها في الموضوع. ثم رتب لهذا اللقاء، فهو يحب ابنة أخيه كثيرا ولا يرد لها طلبا.

في نهاية الأسبوع قصد خليل ورجاء بيت العم إيدير ترافقهما ليلى. وجدوه في انتظارهم، وقد حضّرت عائلته ما يليق بإكرام الضيوف. ولم يكن ليستقبلهم وحده، ففي قاعة الضيوف الفسيحة تجلس زوجته وابنته على يمينه ويجلس ولداه على يساره.

لم يكن الحاضرون بحاجة إلى التعارف، فعائلتا خليل وإيدير على علاقة طيبة ومستمرة، لكن الفضول الذي يلاحق الفتيات جعل الشابة لويزة تسأل ليلى عن البنت التي ترافقها. وبعد أن عرفت أنها رجاء قدمت لها أخويها أكلي ولونيس الذي بدأ ينظر إلى الضيفة بنوع من الاهتمام الزائد كلما أحس أن عيون الحاضرين لا ترمقه.

لم يضيع خليل كثيرا من الوقت بعد ذلك، بل باشر إيدير بالسؤال عن نهر السين، ولم تكن لغة إيدير العربية كافية لتوصل الأفكار إلى الحاضرين بسهولة، فهو جزائري من بلاد القبائل، وقد عاش زمنا طويلا في فرنسا، لكن حبه للعربية جعله يحاول التعبير بها. ولما رآه خليل يعاني لغويا رفع عنه الحرج وطلب منه الحديث بالفرنسية، على أن تتولى ليلى ترجمة كلامه لابنة عمها.

- "لقد كان يوما صعبا على الجزائريين، أقصد السابع عشر من أكتوبر عام 1961". كانت تلك هي الجملة الأولى التي استهل بها إيدير حديثه الذي اختلط بكثير من المشاعر، ثم أردف كلاما كثيرا يفصّل به ما وقع ذلك اليوم، وفي نفسه حسرة وألم.

فقد فرضت السطات الفرنسية حظرَ تجوالٍ ليليًا على الجزائريين الذين دعتهم جبهة التحرير الوطني إلى كسره حتى تصل القضية الجزائرية أكثر فأكثر إلى الرأي العام الفرنسي والعالمي.

تدخلت رجاء: وما علاقة نهر السين بهذا يا عماه؟

- ذاك نهر يحبه الجزائريون ويكرهونه في ذات الوقت. يكرهونه لأنه ابتلع أجسادا عديدة لا ذنب لها، ويحبونه لأنه لا يزال شاهدا على وحشية شرطة باريس وقائدها موريس بابون الذي أعطى أوامره لعناصره بعدم التسامح مع المتظاهرين رغم سلمية مظاهراتهم. تماما مثلما لا يزال حي سان ميشيل Saint Michel وحي سان سيفرين Saint Severin يشهدان على هذه الوحشية.

وحين تدخلت ليلى لتترجم ذكّرت رجاء بجزيرة المدينة، فالحيّان المذكوران يقعان بالقرب منها.

ثم استرسل العم إيدير يتحدث عن وحشية الشرطة الفرنسية واعتداءاتها الرهيبة على الجزائريين الذين رُمي بأكثر من 400 منهم في نهر السين تحت أوامر موريس بابون Maurice Papon.

- وهل لرِجلك علاقة بهذا يا سيدي؟ سألته رجاء والحرج بادٍ عليها من خجلٍ صار يعلو محياها.

- نعم، فقد طاردني أفراد الشرطة، وكدت أُفلت منهم لكنني اصطدمت بإحدى سياراتهم وأنا أحاول الانعطاف يسارا عند ركن المقهى، ولم استفق إلا بعد مدة على وقع نعال الممرضات في المستشفى، وقد بُترت رجلي. كانت فترة قاسية جدا، لذلك حَظِيَتْ باهتمام المؤرخين، وقد سمعتُ أن مؤرخَين بريطانيين أصدرا كتابا في الفترة الأخيرة عن هذه الحوادث.

وتدخل ابنه لونيس!

- إنهما جيم هاوس Jim House ونيل ماكماستر Neil MacMaster وكتابهما يحمل عنوان: Paris 1961: Algerians, State Terror, And Memory.

قال ذلك بالإنجليزية وهو يحاول لفت انتباه رجاء بعد أن علم أنها تتقنها، فهذا أول قاسم مشترك لعله يوطد لعلاقة مع الشابة الفلسطينية.

وجاء دور أكلي. هو مندفع مقارنة بإخوته. لذلك سأل:

- وكيف أحوال إسرائيل يا عم خليل؟

نظر إليه والده، وعلقت أخته على كلامه: كان أجدر بك أن تسميها فلسطين. أم إن المناهج الفرنسية نجحت في غسل دماغك؟

لم تفهم رجاء كثيرا من حديث لويزة وأخيها، ولكنها عرفت أن القضية تتعلق بخلاف جوهري.

يختلف أبناء العم إيدير اختلافا كليا. فلويزة وأخوها لونيس يعتبران الجزائر وطنهما، أما فرنسا فموضعٌ اقتضت الظروف العيش فيه، رغم أنهما فرنسيان حسب القانون الفرنسي بحكم مولدهما في هذا البلد.

وأما آكلي فلا علاقة له بالجزائر. هو يرى أنه فرنسي وعليه أن يدافع عن قوانين الجمهورية، ويدعم مواقف بلاده دون الحاجة إلى "تفعيل" الجانب العاطفي الذي لا يقدم - حسب اعتقاده - كثيرا لا للأفراد ولا للشعوب.

وعلقت لويزة: - لا تهتمي يا رجاء فأخونا هذا لا ينتمي إلى العائلة إلا بالاسم. أما أخي لونيس فهو المثقف المعتدل والشاعر الملتزم. إنه شديد التعلق بمالك بن نبي. أتعرفينه؟

ردت رجاء بالنفي!

وتدخل لونيس في هذه اللحظة الحاسمة، كأنه فارس مغوار وجد في حديث أخته عن مالك بن نبي الحصانَ الذي يمتطيه والسيفَ الذي يضرب به ليصنع مشهدا بطوليا يليق بالضيفة التي تُزيّن الجلسة.

- مالك بن نبي واحد من أكبر مفكري الجزائر، درس الهندسة ثم وجد نفسه في عالم التنظير. عاش في فرنسا وفي الجزائر. يعرفه كبار المثقفين لأنه عالج مجموعة من القضايا التي تعتني بمستقبل العالم الإسلامي خصوصا والدول المتخلفة على العموم. ورغم أنه كان يكتب حول قضايا التعاون ومسائل عدم الانحياز وشروط تطور عالم الجنوب منذ خمسينيات القرن الماضي فإن أفكاره ظلت طي النسيان حتى بداية الألفية الثالثة. لقد صدق الرجل حين قال يوما ما: "أشعر أني كذرة وحيدة تقاوم قوى عملاقة"

هل له كتب يمكنني الاطلاع عليها؟

وكان هذا سؤالَ رجاء الذي جعل لونيس يقوم من مكانه بسرعة ملفتة للنظر قاصدا مكتبته ليجلب إليها بعض كتب هذا المفكر العملاق.

- هذه هدية مني أرجو أن تقبليها. عناوين مختلفة؛ شروط النهضة - ميلاد مجتمع - فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ. ولي أن أزودك بعناوين أخرى إن شئت... ربما سأتصل بك في قادم الأيام.

وماذا عن شِعر أخيك يا لويزة؟

قالت ذلك للويزة وقد غلبها الحياء، أما السؤال فكان في أصله موجها إلى الشاعر نفسه.

وبادرت لويزة أخاها في براءة كبيرة تختلط ببعض الخبث:

أتسمح لي بقراءة قصيدة الرسالة؟

أومأ إليها بتحريك رأسه نحو الأعلى ثم الأسفل.

وقامت لويزة تلقي القصيدة بلسان عربي فصيح وكأنها لا تعيش في باريس.

رسالةُ حُبٍ من تل أبيب

استلمتُ اليومَ رسالةً من تل أبيبْ

وعلى ظرفها روائحُ عطرٍ مُرسَلهْ

ومع العطر عباراتُ ودٍ مخجلهْ

وبين الرسالة والظرفِ بقايا سنبلهْ

وعلى الجوانب منها

رموزٌ مقفلَهْ

حاولت أن أفتحها

لاحظتُ غيابَ البسملهْ

فتّشتُ عن أحرفها

فتلاشت مهملَهْ

فتشتُ وفتشتْ

فما وجدت غير القنبلهْ!

صفق خليل وتهللَ وجهُه، فالقضية تمسه وابنة أخيه بشكل مباشر، وبدت السعادة على لونيس، بينما استرقت رجاء النظر إليه وابتسمت، ثم الفتت إلى العم إيدير وزوجته لتشكرهما على حسن الضيافة، وانصرفت مع عمها وابنته وهي تفكر في الشاب الخلوق المثقف، وتقول في نفسها: ليته يتصل!

عَوْدٌ على باريس

منتصف فيفري..

ما أشد قساوة البرد في أزقة باريس..

وحين ترى المشردين الذين هم بلا مأوى لا تملك إلا أن تقول: "ما أقسى كثيرا من القلوب بباريس"

بعد شهر من بدء العمل بهذه المدينة التي تهر من يعرفها ومن لا يعرفها قررت زينب الاتصال بعادل، حملت الهاتف بيدين ترتجفان، شكلت الرقم بالضغط على الأزرار وانتظرت هنيهة، وإذا بالهاتف يرن.

خلال هذه البرهة من الزمن انهالت على زينب الأفكار تزاحمها المخاوف!

تُرى هل مازال عادل يستخدم هذا الرقم؟ هل سيجيب؟ وهل سيعرف صوتها إن أجاب؟ وكيف يكون رد فعله؟

وانتبهت من كل هذا حين جاءها الجواب يحمله صوت رجل:

-نعم؟

-مرحبا. أنا زينب.

سكت عادل قليلا ثم أردف قائلا: مرحبا زينب. كيف حالك؟

كانت هذه الجملة نهاية لحالة التردد التي أصابتها، ومفتاحا منحها القوة على الاستمرار في الحديث، واستخدام مزيد من الكلمات حتى لو لم تكن هي التي أرادتها لإيصال المعنى المرغوب.

ومع الأيام أصبح "الخيط الرفيع أكثر قوة ومنعة"، والتقت زينب بعادل، وصار بينهما حديث طويل عن عمل كل منهما ومشاريعه المستقبلية، فهما من عالمين مهنيين مختلفين؛ عالم الرياضة وعالم التكنولوجيا، ولكن بينهما قاسما مشتركا هو الطموح والرغبة في تحقيق النجاح بقوة واقتدار.

غير أن "العين الخبيثة" لا تريد لهاتين النبتتين أن تزهرا. ففرصة اللقاء هذه كان روبرت ينتظرها منذ مدة، باعتبارها أداة ستختصر عليه المسافة والجهد. ذلك أنه كان قد حوّل عادل إلى مشروع "تفجيري" وفشل، فبدأ ومن معه يفكرون في استخدام هذين الشابين لمهمة أخرى. لكن من أين تبدأ مرحلة التنفيذ؟

حام روبرت حول "نادي الإلهام" حوما، وحين تأكد من وجود عادل به دخل إليه، وسلم على جميع من فيه، ثم اقترب من الشاب الوسيم، وذكّره بأنه السائح الأمريكي الذي يريد التعرف على المسلمين، ثم حاول أن يستخدم عنصر الغنى والثراء لجلب عادل.

- ما أصعب أن يتابع الإنسان نشاطات شركاته عن بعد!

- في أي مجال تشتغل؟

- وهل ترك لنا الشباب خيارا آخرا غير التكنولوجيا. إن حبهم لها يُغرينا فنضاعف الجهود.

ثم أردف محاولا إغراء عادل: إذا كان لديك استعداد للعمل معنا فلا مانع لدينا.

- وما مجال عملكم؟

- أخبرتك أننا نشتغل في مجال التكنولوجيا، وقد لاحظت اهتمامك بها. هل لي أن أعرف مستواك؟

أخبره عادل أنه خريج جامعة محترمة في مجال التكنولوجيات والبرمجيات، وأنه اشتغل لحساب شركة خاصة لكنه تركها لأسباب مادية، فهي مثال عن الشركات الرأسمالية التي لا تدخر جهدا لاستغلال القوة البشرية استغلالا بشعا غير مبالية بحقوق العمال والموظفين.

عندها شرع روبرت في تقديم صورة عامة عن شركته. لقد جعلها صورة منمقة مزينة، تغري كل من رآها أو سمع بها. وليس الإغراء في التحفيزات المادية فحسب، وإنما في الأهداف النبيلة التي تعمل على بلوغها والغايات السامية التي تسعى إلى تحقيقها. حتى أن كل من يسمع ما يقال أو يَقرأ ما يكتب عنها يقع في شباك مسؤوليها.

وهكذا وقع عادل حيث التحق بشركة يديرها روبرت، وهي حقا مختصة في تكنولوجيا البرمجة، واستقر الشاب في مكتبه، وصارت مساهماته تثري رصيد

المؤسسة، ولم يحس للحظة واحدة أن روبرت مجرد مالك وهمي يظهر في الصورة بدل المدير الحقيقي حتى ينجز المهمة التي جاء لأجلها.

بعد فترة ليست بالطويلة كلف روبرت عادل بمهمة خاصة. لقد جعله سفيرا للشركة يجوب البلدان ليجمع لها الزبائن والشركاء، وهي مهمة تقتضي معرفة جيدة بفنون التسويق، وأخرى بأبعاد العلاقات العامة، وإلا انقلبت الصورة رأسا على عقب.

لكن كيف لشاب مولع بالتكنولوجيا، حديثِ عهدٍ بالشركة أن يتولى أمرا كبيرا كهذا؟ سؤال واجهه روبرت من أطراف عدة؛ من الهيئة الأمنية التي ينتمي إليها، ومن صاحب الشركة الذي رأى في المهمة مغامرة قد تسحق ما بناه على مدى عقود، ومن عادل نفسه.

لقد أصيب الشاب بدهشة لم تختفِ آثارها إلا بعد فترة. لكن روبرت، الذي علمته التجارب كيف ينتقي من يشاء للمهمة التي يشاء، طمأنه وهدّأ من روعه حين وعد بمساعدته والوقف معه، كما كان للحافز المادي دورٌ في إغراء الشاب الذي عوّل على مواهبه فقرر خوض التجربة مهما كانت نتائجها.

كان روبرت يهيّئ عادل لمهمة أكبر وأخطر. فالسفارة القادمة ستكون للدفاع عن أمريكا في محافلَ هي أقربُ إلى عادل منها إلى روبرت. هكذا عوّل الكهلُ على استغلال الشاب في تبييض صورة الإجرام الأمريكي الذي امتد عبر عقود طويلة، وترك من الآثار ما يدل عليه في كل قارة بل ربما في كل بلد.

انظرْ إلى تاريخ الحروب في القارة الإفريقية تعرفْ من كان وراء إثارتها، وانظر إلى الشركات المصنِّعة للأسلحة تقفْ على حقيقةٍ مؤلمة. ملايين البشر يقتتلون هنا وهناك، بين القبائل أحيانا وبين الدول أحيانا أخرى. تحالفات ليس وراءها إلا الخراب الذي يضرب العالم المتخلّف. جرائم نووية دشّن العم سام أولى تجاربها في هيروشيما وناكازاكي غير مبالٍ بآثارها التي لا زال بعضها قائما إلى اليوم.

وفي مقابل ذلك كله يغتني الأمريكان وتزدهر صناعاتهم وينعكس ذلك على المستوى المعيشي لأبنائهم المترفين أصلا، فتُبنى لهم أحسن المدارس والجامعات، وتشيّد لأجلهم أكبر المستشفيات، وتراهم ينعمون باللعب في الحدائق العامة والمنتزهات، يسكنون بيوتا محترمة ويركبون وسائل نقل لا تليق إلا بهم وبأمثالهم، وينعمون بأنظمة صحية متكاملة.

لعل روبرت يرفض أن تقتصر هذه الصورة السوداوية على العم سام وحده. وروبرت محق في هذا. فالعالم الغربي قد تواطأ منذ قرون على انتهاج خطة واحدة مع تفاوتٍ في درجات التنفيذ، ثم ما انفكّ الرجل "الأبيض صاحب الحضارة" أن اقتتل مع أخيه الأبيض، فصروح الحضارة التي يدّعيانها ما لبثت أن انهارت أمام "تصادم المصالح"، وصارت الإنسانية كلها "على كف عفريت". تلك هي الحرب العالمية الأولى وتلك هي الحرب العالمية الثانية، ثم هي الحرب الباردة ثم هي ما يجري اليوم في بلدان عدة.

أحيانا ينزوي روبرت ويفكر بهذا المنطق الصريح الذي يرفضه "العقل الغربي الرسمي"، ويغفل عنه "العقل المجتمعي" الغارق في رغبة العيش. يقولون إن المجتمع الغربي - على طيبة كثير ممن فيه - لا يهتم إلا للقمة العيش التي يأكلها، ولا يطرح إلا سؤالا واحدا؛ أين تذهب أموال الضرائب التي يدفعها؟ أما ما عدا ذلك فجرد تفصيل فرعي.

لكن الضمير البشري قد يستيقظ ولو للحظات قبل أن يجبره صاحبه على الدخول مجددا في سبات عميق ولفترة طويلة.

والعالم الغربي ليس كله سوءا في الواقع. هكذا يظن عادل والأسوياء من أقرانه. ففيه أناس طيبون لا يحملون حقدا ولا تعرف نفوسهم الغل والحسد، وليس لهم سبيل إلى ظلم أحد. ولكن هؤلاء محكومون بمن تختلف نواياهم عن هذا بشكل تام، ومسيَّرون بآلية لا ترى في الأفق سوى المصلحة والمنفعة.

كانت هذه هي المهمة التي انتُدب لها عادل...

أن يصنع من صورة الغول الغربي عموما والأمريكي خصوصا صورة حَمَلٍ وديعٍ ليس له همٌّ في الدنيا إلا أن يتبرع للمؤسسات الخيرية العالمية بملايين الدولارات، ويدعمَ المنظمة العالمية للصحة بقسم كبير من ميزانيتها التي ترعى بها "البؤساء"، ويضحيَ بأبنائه الضباط والجنود بالتدخل لأجل فض النزاعات هنا وهناك، وينفقَ على البحوث العلمية التي من شأنها إنقاذ البشرية، بل ويوفرَ مِنَحًا للمتفوّقين من أبناء "العالم المسحوق" ليزاولوا دراساتهم العالية. لا

ليعودوا إلى بلدانهم فيخدموا مواطنيها ولكن ليظلوا في الدول المتطورة يساهمون في قوّتيها الاقتصادية والسياسية وتقدمها العلمي وتفوقها العسكري.

نعم. تُقتل البشرية بالسلاح المباشر ثم يُبحث لها عن مخارج وهمية للنجاة من خلال المشاريع البحثية البطيئة، والمساعدات المالية المحدودة.

هكذا أراد روبرت للمهمة التي كلف بها عادل، غير أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن..

فروبرت مصاب بمرض السكري، وغالبا ما تظهر عليه أعراض هذا المرض حين يجهد نفسه في العمل. وحدث أنه ظل أياما متتالياتٍ في المكتب حتى لا يلاحظ عادل غيابه، وكان يعمد - ولذات الغرض - إلى استدعائه مرة تلو الأخرى، يوجهه أحيانا ويكلفه بمهام معينة أحيانا أخرى.

وفي ذات مساء وبينما عادل يهم بركوب سيارته المركونة في الحظيرة التابعة للشركة رأى روبرت يتمايل متجها إلى سيارته. وبدا الأمر غريبا، إذ ليس من عادة روبرت أن يشرب وقت العمل، فلمَ التمايل؟

أسرع إليه عادل فلاحظ أنه لم يكن على ما يُرام، أخرج هاتفه من جيبه وشكّل رقم الطوارئ. ردت عاملة الاتصالات، أخبرها بسرعة ودلها على مكانه. ولأنه يعيش في بلد يحترم مواطنيه وصلت سيارة الإسعاف بسرعة كبيرة.

حُمل المريض ليوضع داخل سيارة الإسعاف، وجاء عادل ليركب معه لكن الممرضة اعتذرت له، فلا يمكنها السماح له بذلك. بيد أنه أصر وراح يدعوها إلى تفهم الوضع فسمحت له بالركوب.

ظل روبرت في المستشفى ليلة كاملة بين الإغفاءة والاستفاقة، وعادل لا يفارقه. فلما أفاق في صباح اليوم الموالي استغرب وجوده في المستشفى واستغرب أكثر وجود عادل معه. لكن الممرضة أخبرته أنه هو من أحضره فكان سببا في نجاته، وأنه أمضى الليلة في المستشفى رافضا تركه وحده.

لم تكن هذه الكلمات لتمر على روبرت بسهولة. ولكنه رجل براغماتي لا يرى فيما يقدمه له الآخرون إلا مصلحة مادية بحتة، ولا يمكن أن يشذ عادل - في نظر الكهل - عن هذه القاعدة!

بعد يومين - أبان عادل خلالهما عن خلق حميد لا يمكن للحضارة الغربية أن تثمنه مادامت تزن كل شيء بميزان الماديات - خرج روبرت من المستشفى وعاد إلى الشركة، وابتدر عادل بمنصب جديد. وتساءل عادل: ولمَ المنصب؟

قال روبرت بصراحة الإنسان الغربي الذي لا يداري حين يتعلق الأمر بمصلحته: هذا مقابل ذاك. لا أريد أن تظل صاحب فضلٍ عليّ ودينٍ سيلاحقانني طول الحياة.

وانتفض عادل، واحمرّ وجهه، وانتفخت وجنتاه، وصار كل جسده يرتعد. ثم رد على روبرت: أهكذا ترى الأمر حقا؟ أليس بين البشر من العلاقة ما يمكن

أن يعلو على المصالح المادية؟ أليس بينهم حسنُ ظنٍّ ومقتضياتُ عِشرة؟ أم هذا أقصى ما علمتم حضارتكم؟ أتظن حقا أنني حملتك إلى المستشفى وأمضيت الليل في رعايتك لأستعطفك فأحصلَ منك على مقابل مادي؟

لقد علمتني حضارتي أن أخدم الإنسان، لأنه أحد اثنين؛ إما أخ لي في الدين وإما نظيرٌ لي في الخلق، وله عليّ حقٌ في الحالتين. وعلمتني أن الخلق عِيالُ الله وأنَّ أحبَّهم إلى الله أنفعُهم لعياله. وعلمتني أن قيمة الإنسان فيما يقدمه لإخوانه...

وبدا على روبرت بعض اللين وهو يستمع إلى عادل، رغم الفضاضة التي يتميز بها والبراغمية المَقِيتَةِ التي تطبع شخصيته إلى أبعد الحدود، وتذكر مساعِدته سوزان التي استقالت من منصبها بعد أن تعرفت عن قُربٍ على إبراهيم السجين الذي فتح عينها على معالم ثقافة الشرق، فقال روبرت في نفسه: تُرى هل كنتُ على خطأ؟

كم كان هذا السؤال بدايةً للتحول في دنيا الناس على مرّ العصور! وكم كانت الكلمة القويةُ الصادرة عن قلبٍ صادقٍ هي الدافعَ إليه!

أما صيغة التحول عند روبرت فكانت انسحابَه من مشروعٍ تدميري استهدف كثيرا من الأبرياء بشكل فظيع.

لقد فهِم أخيرا أن امتلاك القوة لا يصنع الحق بالضرورة، وأن الجبروت يُطغي لكنه لا يُركب صاحبَه إلا على أكتاف الجبناء. أما الأحرارُ فيفضّلون الموت على العيش تحت جناح المهانة...

تلك حال الدنيا فعش أو ارحل من غير وداع!

بعد فترة ليست بالطويلة ركب عادل القطار السريع الذي أقلّه إلى لوهافر ليقابل والد زينب. ولم تقُدهُ هذه الرحلة الجميلة إلى لوهافر فحسب، ولكنها قادته إلى مرحلة جديدة من حياته زيّنها زواجُه من زينبَ التي أحبته منذ الرحلة الأولى التي جمعتهما على متن الطائرة. ولأن تلك السُّويعات كانت يومهَا مفتاحا لهذه السعادة قرر الشابّان السفر مجددا على متن "القطرية" لإمضاء شهر العسل في مكان بعيد عن تلك العيون المتربّصة.

كمال بن صحراوي

كاتب وأكاديمي جزائري من مدينة تيارت، لديه مساهمات بحثية منشورة وطنيا ودوليا، وصدرت له العديد من الأعمال التاريخية. "حب على متن القطرية" أوّل عمل سردي يصدر له.

ومع الأيام أصبح "الخيط الرفيع أكثر قوة ومنعة"، والتقت زينب بعادل، وصار بينهما حديث طويل عن عمل كل منهما ومشاريعه المستقبلية، فهما من عالمين مهنيين مختلفين؛ عالم الرياضة وعالم التكنولوجيا ولكن بينهما قاسما مشتركا هو الطموح والرغبة في تحقيق النجاح بقوة واقتدار.

ISBN : 978-9931-06-275-2

9 789931 062752

خيال للنشر والترجمة

khayaleditions@gmail.com

Scanned by CamScanner